أولادنا

تأليف : لينا كيلانى
رسوم : شريف رضا

غابة الأسرار



دار المعارف

أولادنا

(٤٨)

غابة الأسرار

تأليف : لينا كيلانى

رسـوم : شريف رضا

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كيلانى ، لينا .
غابة الأسرار .
تأليف : لينا كيلانى .   رسوم : شريف رضا
القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٨ .
٩٦ ص ؛ ٢٠ سم . (أولادنا ؛ ٤٨١)
تدمك ٠ ـ ٧١٩١ ـ ٠٢ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية   ٢ ـ قصص الأطفال .
أ ـ رضا ، شريف (رسام)   ب ـ العنوان .   جـ ـ السلسلة
ديوى ٨١٣,٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨ / ٣٩٢٥   ٢/ ٢٠٠٧ / ٥٧

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف : ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس : ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

رحلة صيـد

عندمَا تجمَّع بعضُ الأصدقـاءِ منْ رجالِ تلكَ المدينةِ الصغيرةِ عَلى حدودِ الغَابةِ منْ أجْلِ رِحلة الصيدِ، كانُوا مَسْـرورينَ، لأنهَا الفرصةُ السنويةُ التِى يَخرجونَ فيهَا للصيـدِ فى الغابةِ ومـا حولهَا، ولأنهُمْ أيضًـا قررُوا أنْ يتوغَّلوا فى الغابةِ بعدَ أنْ جمعُوا المعلومَات اللَّازمة عنهَا حمايـةً لهُم منْ أخطارهَا، فهِى غَابةٌ متنوعةُ الأشـجَار وَالنباتَـات، وحيوَاناتها أليفة، ولا تسـكنهَا الوحوشُ ولَا الذئابُ، أو الأفاعى والثَّعابين، لكنَّ صُعوبةَ ممرَّاتهَا وضيقهَا وَكثرة الصخور التِـى تحيطُ بهَا كانتْ تمنعهُم منَ التوغُّلِ فيهَا لا سيمَا وأنَّ بعضًا منْ تلكَ الصُّخور تسدُّ فتحَاتِ مغَارَاتٍ مجْهولة لَمْ تكتشفْ بَعْد.

وبينمَا جماعَةُ الصَّيد يسـتعدُّونَ للانطلاقِ قبلَ الفجرِ كانَ (عامر) مُسْـتيقظًا من نومهِ ومتحفـزًا، وهو يروحُ ويجئُ ليلفتَ نظرَ أبيهِ لعلَّهُ يصطحبهُ معهُ للصَّيْد.

قالَ الأب:

– ماذَا يَا عامر؟ هلْ لازلتَ مصرًّا عَلى الذهابِ معنَا؟

أجَاب عَامر:

– كلّ الاصــرارِ يَــا أَبِــى .. وقــدْ هيَّــأتُ كلَّ ثيابِى وَلوازمى، ولمْ يبقَ إلا أنْ تسمحَ لِى بالانضمامِ إلِيكم.

قال الأب:

– وهلْ إذَا سمحتُ لك سأكونُ واثقًا منْ أنكَ لنْ ترتكبَ خطأً مَا؟

قال عامر:

– أَىَّ خَطَــأ؟ تقصدُ فِى الصيدِ؟ أَنَا تدربتُ معكَ طوالَ الشــهرِ الماضِى، ومَا عَدا ذلكَ لَا أعتقدُ أننِى سَــأُخطىءُ فِى شىءٍ آخرَ.

قال الأب:

– آمــلُ ذلكَ يَا بنىَّ .. فأنَا لا أريدُ أَنْ أشــغلَ أَصدقائِى بشأنكَ، أَوْ أَنْ تكونَ عائقًا عنْ برنامجِ الرحلةِ. ولولَا أنَّ العمَّ فُؤاد سَيصْطحبُ ابنهُ فادِى لمَا جَازَفتُ أنْ تذهبَ معِى.

هتفَ عامر بفرح:

– فادِى .. سيذهبُ معنَا؟ هذَا عظِيم.. هذَا رائعٌ.

وأسرعَ يقبِّلُ والدهُ ويهمسُ لهُ:

– لا تظنُّ أنَّ فادِى أفضَل منِّى فِى شىءٍ .. حتَّى فِى الصيدِ، رغمَ أنهُ ابنُ زعيمِ الصيَّادِينَ، ثمَّ لا تنسَ أنهُ أكبرُ منِّى سنًّا.

ضحكَ الأب، ودفعَ بابنهِ منْ ظهره، دفعًا لطيفًا فانطلقَ عامر مثل صَاروخ وهو يصيحُ حَتَّى أَيقظَ إخوتهُ الصِّغار:

– سأذهبُ مَعَهم إِلى الصيدِ .. سأذهبُ مَعَهم.

ومرَّ مثلُ البرقِ نحوَ أغراضِه المكدَّسة وراءَ بابِ غُرفته فحملهَا، ولمْ ينسَ أنْ يثبتَ عَلى كتفهِ آلةَ التصوير، وَأَنْ يدسَّ مذياعًا صغيراً فِى حَقيبةِ يدهِ القُماشية الخَفيفةَ التِى تَحْتوى عَلى أَشياءَ كثيرةٍ منْ بينهَا أقلاَم، وَأوراَق، وَنظَّارة شمسيّة، ومنظَار مُكبر، وكَشَّاف، وبطَّاريات خَاصَّته.

انطلقتِ المجموعةُ، وَكلٌّ منهمْ يُنَادِى كلْبَه، أوْ يثبتُ بندقيَّة، أَوْيتفقدُ الخرطُوش وعدَّة الصيدِ، وَأسرعَ الوَلَدَانِ

(عامر وفادى) بالانطَلاق نحوَ طريقِ الغابَةِ.

صرخَ والدُ عَامر بابنِه:

– هيه .. عَامر .. لماذَا تسبقنَا معَ رفيقكَ .. هلْ بدأْنَا بالمتاعِبِ؟ أَلَمْ نتفقْ منذُ قليلٍ أنْ لاَ أخطَاء؟

توقــفَ عامر فِي مَكانه بلْ تجمَّد .. بينمَا ارتدَّ فادِى إلى الورَاء، فقالَ عَامر:

– إنهَّــم يُنَادونَنَا لنُصَلــى مَعَهُــم .. أَمْ ظننتَ أَنهم سيعيدُونَنَا منْ حيثُ أتينَا؟

وضحــكَ الرفيقَــان. وَما هِىَ إلاَّ دقَائــق قَليلة، حتَّى بــدأتِ الأقدامُ تدبُّ فــوقَ الأرضِ بأحذيةِ الصَّيد الثقيلةِ طَويلة الســيقَان ... وَمَا لبثتِ الكلابُ أَنْ بدأَت تتناوَشُ وتهزُّ أَذْيَالهَا، وتصدرُ نُبَاحًا مُتَقَطعًا.

قَال عَامر:

– سنسِيرُ إلى جِوَاركم يَا أَبِى .. ليسَ قبلكُم ولَا بعدَكُم .. وإنَّما سنبتعدُ قليلًا عنكُم وَلكنْ بمحَاذَاتكم.

ابتسمَ الأَبُ وقالَ مُخَاطبًا وَالدَ فَادى:



أسرع عامر وفادى بالانطلاق نحو طريق الغابة...

– أولادنَـــا يَا أَخِى فؤاد لَا يريدونَ أَنْ يشـــاركونَا فى أحاديثنَا.

تدخَّلَ فادىِ وقَال:

– عفوًا يَاعــم .. لم نقصِدْ ذلكَ .. ففِى أحَاديثكُم دائمًا فائَدةٌ لنَا لكنهَا المرةُ الأولىَ التِى نخرجُ فيهَا معًا أنَا وعَامر للصيدِ ولَا نريدُ أَنْ نخطئَ .. أليسَ هذَا رأيُك أيضًا؟

وهكَذا بدأتْ رحلةُ الصيدِ .. وعَامر وفادِى سعيدَان جدًا، فتعانقتْ أيديهمَا كأنمَا يخشيانِ أَنْ يطيرَا منَ الفرحِ.

قَال عَامر:

– هلْ تريدُ الحقيقةَ يا فادِى .. أنَا أخافُ أنْ أطلقَ بندقيتى فأخطىءَ الهدَف. لمْ أتمرَّنْ بمَا فيهِ الكفَاية، ثُم إننِى لَا أحبُّ رؤيةَ الطيورِ وهىَ تتخبطُ على الأرضِ بدمائهَا.

قَال فادى:

– لكننَا الآنَ ذاهبونَ لصيدِ البطِّ فِى البحيرةِ الصغيرةِ القريبةِ قبلَ شُروق الشــمسِ، وفِى هذِه الحالةِ لَنْ تَرى الدمَ.. لأنهُ سيتحللُ بالماءِ .. وَلاَ البَطُّ أيضًا لأنَّ الكلابَ

ستغطسُ وتأتِي بهَا.

قَال عامر:

– وَلوِ اضْطرَّ الأمرُ هلْ سَتسبحُ الكلابُ وراءَ الصيدِ؟

أجاب فادى:

– طبعًا .. أليسَت كلابًا مُدرَّبَة؟ ثُم إنَّ الاصواتَ ستدلهَا على مكانِ الصيدِ سواءٌ أخطأ الصيادُ أَمْ أصابَ.

ولمْ يشاركْ الولدانِ عَامر وفَادى فِى صيْدِ البطِّ، بلْ ظلَّا معَ الدليلِ الحَارس ليساعِدا فِى نَصْبِ الخيامِ انتظارًا للصيادينَ بعدَ امتدادِ الشمْس.

وعندَ الضُّحى استأذنَ عَامر وفَادى منْ أبويهمَا للانطلاقِ نحوَ الغابةِ رَكْضًا طلبًا للرياضَة وللاكتشَاف لاَ أكْثر. قالَ والدُ فادِى زعيمُ الصيادينَ:

– ولماذا لَا تصطادَان أيضًا؟ افعَلا ... ولكنْ لا تصوبَا نحوَ أعشاشِ الطيُّور، وَلَا عَلىٍ تلكَ التِى تتنقلُ بينَ الأغصانِ، وإنمَا نحوَ التى تبدأ تحليقهَا بعيدًا .. هذَا حفاظًا عَلى الأعشاشِ وهوَ منْ قواعدِ الصيدِ أيضًا.

أضافَ والدُ عَامر:

– وَما أظنُّ أنَّ مِنْ حيوانِات الغابَةِ ما يثيرُ اهتمامكُم أكثر منَ الأَرَانب.. وهذِه لا تحتاجُ التَّصْويب إلى الأَعْلى. ومعَ ذلكَ فالحذرُ مطْلوب .. حَتَّى لَايكونُ هنَاكَ اعتدَاء عَلى الأبريَاءِ.

قَال فادِى بجرأةٍ:

– مثل ماذَا يَا عم؟

قَال والدُ عَامر:

– مثل حيوانٍ لَا فائدةَ منهُ سَوَاء منْ لحمهِ أو منْ جلدهِ.

قَال فادى مخاطبًا والدَه:

– ولكنكَ يا والدِى تقولُ إنَّ الصيدَ يعْنى مُتعة الصيدِ فقطْ .. وليسَ الفائدَة. قَال والدُ فادِى:

– للصيدِ فوائــدُ كثِيرة غير اللُّحــومِ وَالجُلود .. إنهُ تدريــبٌ عظيــمٌ علــىَ التصويب نحوَ الهــدفِ .. وعلى السرعةِ فِى التســديدِ والتحدِيد .. وعَلى الاصرَار وَفرح الانتصَار .. وَأُمور أُخرى كَثِيرة ســتعرفونهَا فيمَا بعْد، المهــمُّ ألاَّ نُــؤذِى الطبيعةَ دُونَ مُبرر، ولا نتســببُ فِى

تعذيب مخْلُوقاتهَا.

لمْ يلبث الرفيقَان عامر وفادى أنِ انطلقَا نحوَ الغابَة.

وبعدَ حوالِى نصفَ سَاعة أَوْ أكثر مِنْ غيابِهِمَا، سُمعَت طلقاتٌ مُتَعددة منْ جهتهمَا.

ولمْ تكنْ أىُّ طيورٍ قدْ فُزِعت .. فما معْنَى ذلكَ؟

قَال والدُ عَامر:

– لابدَّ أَنْ نسيرَ باتجاههمَا لنكتشِفَ الأَمْرَ.

أضَاف والدُ فَادى:

هو طريقنَا نفسُهُ عَلى أىِّ حَالٍ.

مغامرة دليلها غزالة

عندمَا أخذَ عامر وفادى يتوغّلانِ فى الغابةِ انقطعَ الحوار بينهُمَا، وكلٌّ منهمَا مُتيقظ حذرٌ يتفقَّدُ موقعَ قدميْه، ويتلفتُ فِى كل الجهَات كأنمَا هناكَ مُبَاغتة مَا.. الأغصانُ كَثِيفة، والأشجارُ يلتفُّ بعضهَا حولَ بعض، والأرضُ طرِيَّةٌ مملُوءَة بالأعشَاب والنباتاتِ البريّةِ المزْهِرَة.

ولَا أصوَات سوَى خفْق الأجنحَة لبعْض الطيورِ الَّتِى تحطُّ فجأةً عَلى الأشجَار، أو تطيرُ عنهَا، وقليلٌ جدًا منْ هذهِ الطيورِ التِى تصدرُ أصواتًا كالأنغَام .. بعضُ الأرانبِ البريَّةِ كانتْ تقفزُ بسرعةٍ وتغيبُ مثل لَمْح البصرِ، كيفَ يمكنُ اصطيادهَا، وهى تمرُّ هكذَا وهمَا جَاهلاَن بمسَالكِ الغابةِ ومخَابئِ حيواناتهَا وخاصَّة الأرانبَ؟

– لا بأسَ ..– قال عامر فى نفسِه – غايتنَا الآن الاكتشَاف فقطْ.

عندمَا قالَ فادى بعبارةٍ مُخْتصرةٍ فيهَا توتُّرٌ وقلَق:

– أظنُّ أننَا أخطأْنَا الاتجَاه .. يجُب أَنْ نعودَ يا عامر.

وتوقفَ الإثنان مُتسمرينَ فِى مكانهَما عندمَا تحركتْ أغصانُ أشجَارٍ صغيرةٍ، ولمحَا عيونًا لامعةً تنظرُ إليهمَا كأنمَا هِى عيونٌ بشَريَّة.

أشَار فادِى لعامر أنْ يصمت واضعًا سَبَابتهُ فوقَ فمِه، بينمَا صوَّبَ بندقيتهُ جيدًا نحو الهدفِ.. ومَا هِىَ إلاَّ لحظَات حتَّى سمعَ دَوِىّ الطَّلقَة واضْطربت أغصَانُ

الأشجارِ كأنمَا وقعَ شيءٌ عَلى الأَرْض.

قال فادى:

– إنهَــا غزالةٌ .. غزالــةٌ صغيرةٌ .. هَيَّا لنســحبَهَا بسرعَةٍ.

وهــرولَ الإثنانِ نحوَ الجهةِ المطلُوبةِ فلمْ يعثرَا عَلى الغزَالةِ.. وإنمَا عَلى خيطٍ رفيعٍ منَ الدمِ يصبغُ العشْب.

قال فادى:

– لقدْ هَرَبَتْ .. مَا أسرعَ جرْى الغزلاَن.

أجاب عامر:

– لكننَا لم نســمعْ وقعَ حوافرِهَا .. ولا نحنُ لمحناهَا .. ثم إنهَا جريحَة بدليِل الدم.

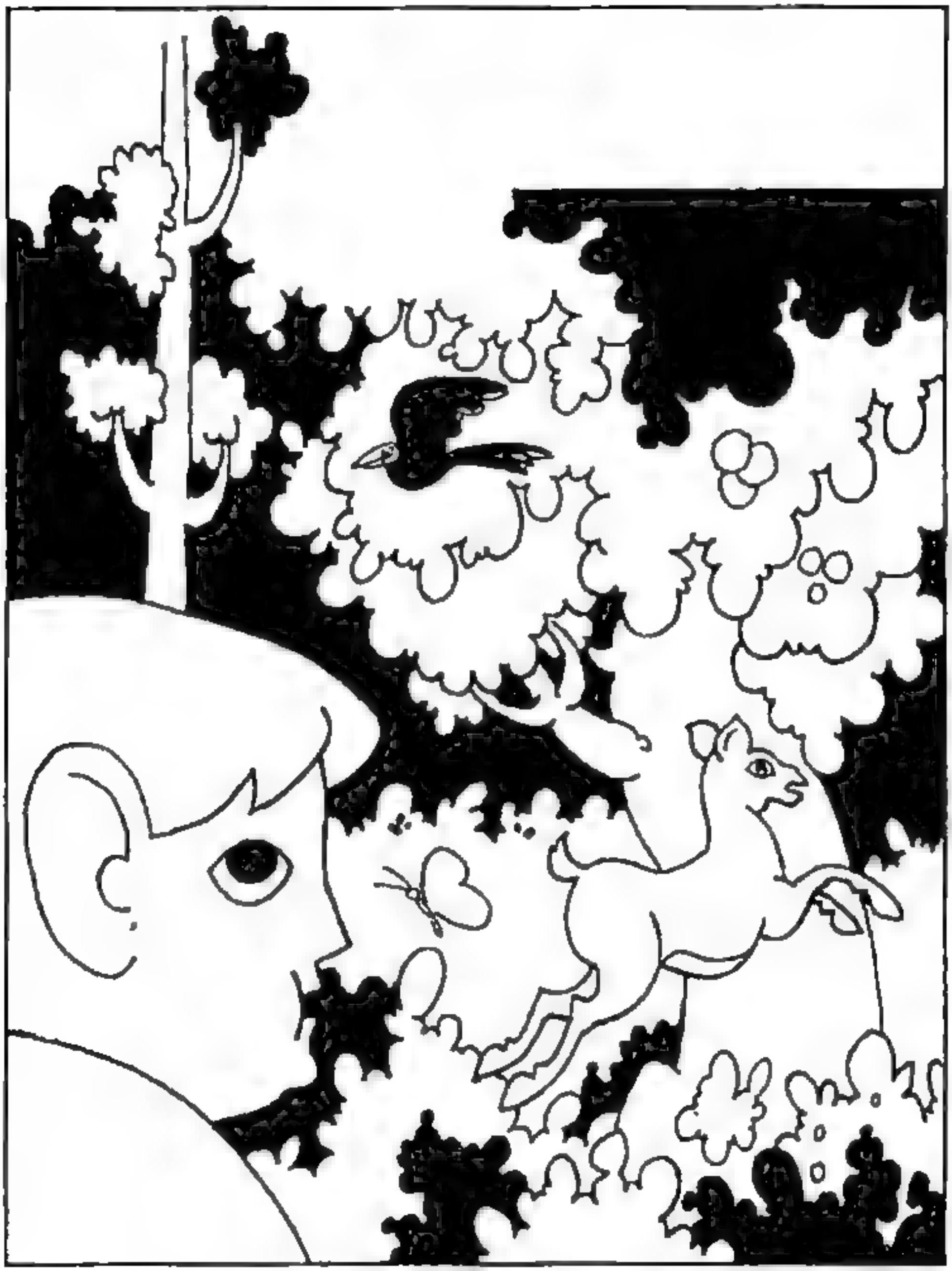
هَل هى جِنِّية وقدِ اختفَت؟

ضحكَ فادى وَقالَ:

– ما علينَا إلا أن نتبعَ آثارَ الدمِ لنصلَ إلى مخبئهَا.

أجاب عامر:

– وإذَا لمْ نعثر عليهَا سنكونُ أَوْغلنَا فِى الغَابةِ أَكثر.



قال فادى: إنها غزالة .. غزالة صغيرة.

قال فادى:

– معكَ حـــقٌّ .. يجبُ ألا نتوغلُ فـــى الغَابة. لكنهَا صيدنَا ويجبُ أنْ نحصلَ عليهِ.

وبعدَ مسَــافةٍ غيرِ قَصيرة لمحَا عددًا منَ الغزلانِ تتجهُ نحوَ مغَارات صغيرةٍ فى أجزاء شبْه مكْشوفة منَ الغابةِ فلمْ يعدْ لديهمَا شكٌّ فِي العثور عَلى غزالتهمَا المنْشودة. أسْرعَ فَادِى الخُطى بينمَا عامر يتعثَّر وراءَه وهوَ يكشفُ مَا حوْله. عندمَا وصلَا كانتْ أمامهمَا سلسلةٌ منَ المغَاراتِ.. ترُى إلى أىًّ منهَــا لجأتِ الغزَالة؟ وبمَا أنَّ الطَّقــسَ كانَ خريفًا فقدْ تجمَّعت فجأة غيومٌ ســودَاء، واكتسَت معهَا الغابةُ بثوبِ قاتـــم. وخوفًا منَ المطرِ هرْولَا ليحتميَـــا بالصُّخور ... ومَا هِيَ إلَّا فترة حتَّى هطلَ المطرُ بغزارةٍ فأصبحَ مِنَ المستحيلِ عليهمَا الرجُوع حتَّى منَ الطريِق نفسهَا التى سلكاهَا.

قالَ فادى:

– لم يعدْ لدينَا سوَى أنْ نختبئَ فِى إحدَى هذِه المغارَات حتَّى الصَّبَاح .. لقدْ غابتِ الشمسُ.. ولنْ نضيِّعَ أنفسنَا.

أطرقَ عامر رأسـهُ – خجلًا – فهوَ الـذِى أصرّ عَلى اللحَاقِ بالغزَالة .. لكنَّ المحنَ –عادةً– هىَ التِى تجعلُ الناسَ يتآزرونَ ويتعاونُونَ. أضاءَ عامر بطّاريته الكاشفَة، وتفقَّد إحْدى المغَاراتِ وقالَ:

– أظنُّ أنَّ هذِه فَارِغة.. مَا رأيكَ أنْ ندخلهَا؟ إنَّ فِى حقيبتِى كلَّ ما يلزمُ لليلةٍ كهذِه، ومعِى بعضُ الشطائِر أيضًا.

قال فادى:

– لكنَّنى لَسْـتُ جائعًا .. وأظنُّ أنهَا ستجلبُ نحونَا الهوَام والحشرَات وربمَا الأفاعِي أيضًا.

رد عامر باضْطِراب:

– إذنْ سأرميهَا بعيدًا.

ثمَّ لوَّحَ بكيسٍ وَرقىٍّ سميكٍ، وأطاحَ بهِ إلى قلبِ الغَابة.

قال فادى:

– لنجمعَ بعضَ الأغصَان اليابسةِ قبلَ أَنْ يُبَللهَا المطَرُ .. لا بدَّ منْ إشعالِ النارِ حتَّى نعرفَ إلى أىِّ مدَى ندخلُ فى المغَارة وإلاّ اختنقْنَا.

قال عامر:

- والنارُ؟ أليسَ فيهَا خطُورة؟

أجابَ فادى:

- ولكنهَا ضَرورة.

جمعَا عيدانًا دقيقةً، وَانْسلاً مثلَ أَرْنبيْنِ مذْعوريْنِ نحوَ المغارة، وفَادى يقولُ:

- اخفضْ رأسكَ حتَّى لا ترتطمَ بالسَّقفِ. ماهذهِ المشكلةِ يَا إلهِى؟

وبعدَ عدَّةِ خطوَات ورائحَة غَريبة تنتشرُ معَ ظلالِ الضَّوء الخَافت تنهَّدَ فادِى بِارْتياح:

- إنهَا مَغَارة نظيفَة.. وهـذِه رَائحـة الرطُوبة والمطَر.

قال عامر:

- لماذَا لا نَسُدُّ فتحةَ المغارةِ بحجَر حتَّى لا يدخلَ إليهَا حيوانٌ مَا مثلًا؟

فكَّر فادى قليلًا وقالَ:

– لاَ .. لاَ.. فلـِو انغَرسَ الحجـرُ فى الأرضِ لصعبَ علينَا إزَاحته، ثُم إننَا لنْ ندخلَ عميقًا فِى المغارة.

إذَنْ .. فكلُّ الاحتياطَاتِ أصبحَتْ مَأْخوذةً بالاعتبَار.. ودخـلَ الصديقانِ إلى المغَارة ليَمْضِيَـا ليلةً هىَ مُغَامرة بحدِّ ذاتهَـا .. الأعصابُ مشْـدودَة .. والآذانُ تلتقطُ أىَّ حركـةٍ أو صوتٍ .. والنومُ يُراودُ العيـونَ ولكنْ لاَ نَوْم. صمتٌ ثقيلٌ لاَ يقطعهُ سوىَ صوتِ الهوَاء فِى الخَارج وهوَ يدخلُ دوَّامات كالصفيرِ فِى فتحَةِ المغَارة.

عامر يقولُ عَلى استحْياءٍ أَنَّهُ السببُ فِى كلِّ مَا جرَى ويجرى:

هَلْ ستنامُ يا فَادى؟

يقولُ فادى:

– لاَ ... نَمْ أنتَ. سأحرسكَ حتَّى تستيقظَ ثمَّ أنامُ أناَ.

يتشجعُ عامر فيقُول:

– أَنا لنْ أنامَ قَطْ .. سأسـهرُ حتَّى الصبَاح. وَلوْ أَردت أنتَ أَنْ تنامَ فافْعَل.

وسادَ الصمتُ مرةً أُخرى. وفجأة قَال عَامر:

- هَلْ تسمعُ مَا أسمعهُ يا فَادى؟

قَال فادِى بغيْرِ اكترَاثٍ:

- لا شــكَّ أنهَا أصــواتُ الهوَاء وهَو يلعبُ بأشــجَار الغَابة .. هلْ أنتَ خَائف؟

كانَ عامر يرتجفُ ومعَ ذلكَ قالَ:

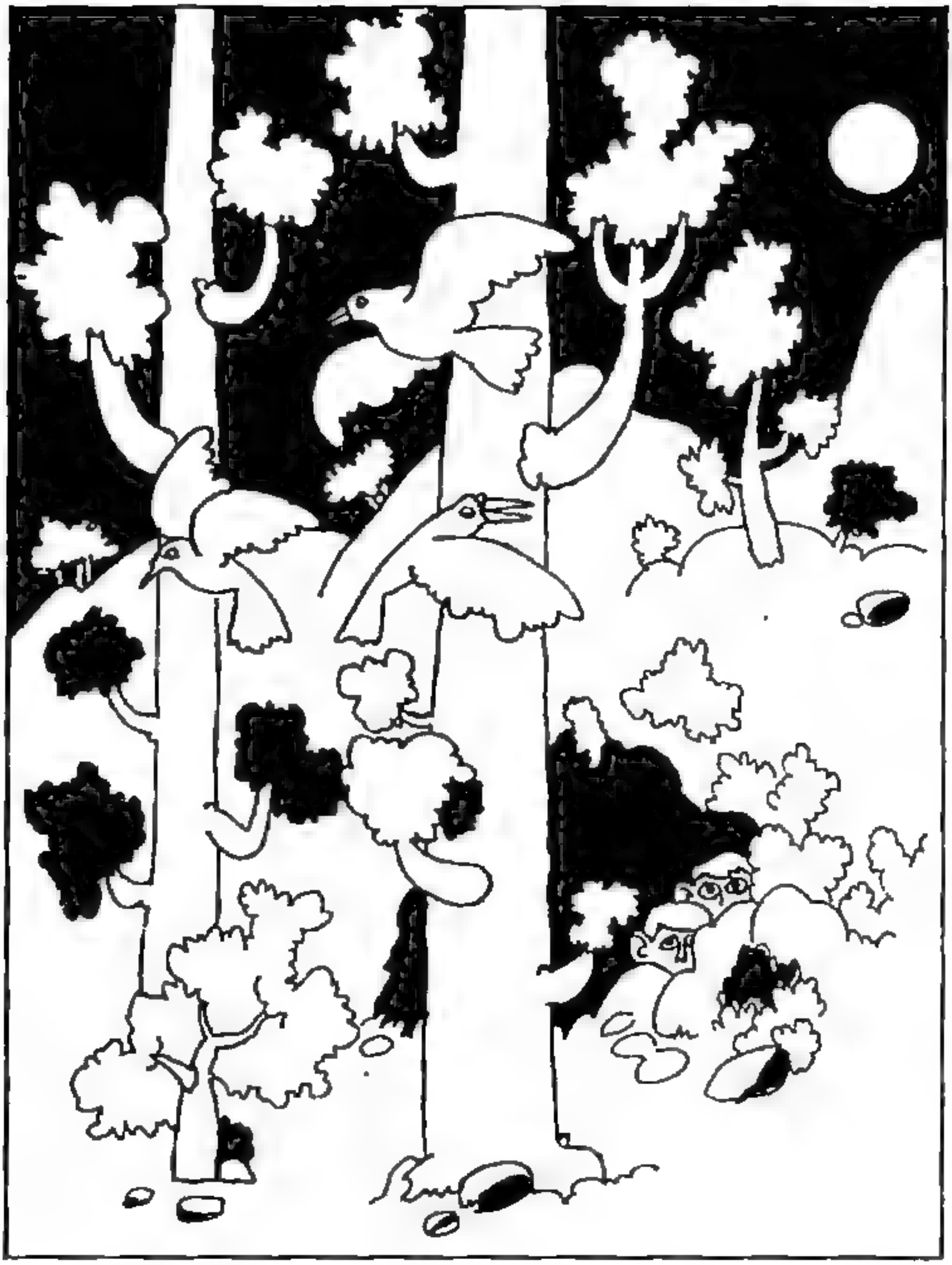
- لاَ .. لاَ .. لستُ خائفًا لماذَا أخافُ؟ لكنَّهَا أصواتٌ كأنهَا بشريَّة هِيَ أنينٌ أو صُراخ .. لاَ أَدرِى.

رد فادى:

- كنْ عاقلًا ومنْ سَــيفعَلُ ذلكَ فى هذَا الوقْتِ .. وَفِى مثلِ هذَا المكانِ؟

لمْ يقتنعْ عامر لكنهُ صَمَتَ.

ومضَى الليلُ ثقيلاً بطيئًا مثل سلسلةٍ منَ الرصاصِ تَسْقطُ فوقَ حجــرٍ صَلْد. وعنــدَ خُيوط الفجرِ الأُولــى وفَادى قدْ أخذتهُ إغفَاءةٌ انسلَّ عامر، والخوفُ لا يزالُ يضطربُ فِى قلبهِ، إلىَ خارجِ المغَارة.. والأصواتُ لا تزالُ تقلقهُ وتثيرُ



إنها أصوات الهواء وهو يلعب بأشجار الغابة.

فضُولــه عندمَا وقفَ أمامَ المغَــارة مُنتصب القامَة يتنفَّسُ هواءً مُنْعشًا، ونجمةُ الصبحِ لا تزالُ تبرقُ. بدتِ الأصواتُ واضحَةً جدًا، وهيَ تصدرُ عَنْ شَجرةٍ ضخمةٍ عِمْلَاقة.

ارتدَّ فزعًا إلى المغَارة وهوَ ينَادى:

– فادى.. فادى .. الشجرةُ تصرخُ. تعالَ وانظُر.

وقامَ فادِى متثاقلاً وَكانت المفاجَأةُ الكُبرى.

مفاجآت

تســمَّرَ كلٌّ مِنْ فادِى وعَامر أمــام المغَارة، ولا صوتَ يصــدرُ عن الشــجرةِ ولاَ عَنْ أَىِّ شــىءٍ آخــرَ .. فالغابةُ هادئةٌ ســاكنةٌ بعدَ العَاصفةِ ماعدَا خفْق أجنحَة الطيورِ المغَادرة أعشاشهَا أو المُغَردة.

قالَ عامر:

– أُقســم لكَ يا فَادِى أنىِّ ســمعتُ تلكَ الأَصواتِ ومنَ الشجرةِ نفسِهَا أيضًا.

مسحَ فادى فوقَ رأسهِ كأنمَا يفيقُ لتوِّهِ الآنَ وقالَ:

- هيَّا نأخذُ أغراضنَا منَ المغارةِ ونرحَلُ ... الشمسُ ستدلُّنَا عَلى اتجاهنَا عندَما تَشرقُ.

وشــعرَ عامر بالخِزْى، هلْ كانَ واهمًا إلى هذَا الحدِّ؟ أَمْ أنَّ هذهِ اللَّيلة فى المغَارة شَوَّشــت ذهنَهُ لكنهَا حَاسَّة السَّمع .. وَهُو لا يشكُّ فِيهَا أبدًا!

وعندمَا وقفَ الإثنانِ معًا أمامَ المغَارة ليحددَا طريقهمَا منْ جديدٍ والصبحُ يَنْثر نورَهُ الفِضى سمعَا صوتَ حوافرٍ دقيقةٍ منْ مغَارةٍ قريبةٍ جدًا منْ مغارتهمَا، لبثَا جامديْنِ حتَّى خرجَت بعضُ الغزلانِ بعيونٍ واسـعةٍ حـذِرة، تتفقدُ مَا حولهَا ومنْ بينهَا الغزالــةُ الجريحَة التِى كانتْ تحكُّ جســدهَا بحَافةِ المغَارة، وقد بدتْ سَـليمَة تمامًا، وضـعَ فادى إصبعهُ عَلى فمِهِ إشــارةً لعَامر ألا يصدرَ صوتًــا عندمَا رأَى الغزالةَ تمرِّغُ جسدهَا فوقَ أعشــابِ طَريَّةٍ صَغيرةٍ عَلى الأرضِ، ثم تنهضُ واقفةً وكأنهَا تُعطى إشارةً للقَطيع بأنهَا مُستعدةً للانطِلاَق.

سَارت الغزالةُ بطيئةً، ثُم لمْ تلبثْ أَنْ أسرعتْ عندمَا قفزَ أرنبٌ بَرِّى أمامهَا، وعندَ ذلكَ اقتربتْ منَ الشــجرةِ

العمْلاقة فَصَدرت تلكُ الأصواتُ الغريبةُ التِي قاَل عنَها عامر أنهَا صُرَاخ.

قال عامر:

– هَل اقتنعــتَ الآن يا فادِى؟ أنَــهُ لَا توجدُ أَصْواتٌ تصدرُ عنِ الشَّجرةِ؟

قال فادى:

– فعــلاً.. ولعلَّ ذلكَ بســبِب الحركــةِ. لنتقدمَ إذنْ وسَنرى ماذَا ستكونُ النَّتِيجَة.

ولكنهمَا لمْ يستطيعَا الوصُول إلى الشجرةِ العمْلاَقة، لانَّ مفاجأةً أُخرى كانتْ بانتظارهمَا.

فالأطعمةُ التِــى رماهَا فادِى ليلًا كانتْ وَليمة لأعدَادٍ كبيــرةٍ منْ فئرانِ الحقولِ التِى أخذتْ تفِرُ مذْعورةً، ومَا إنِ اقتربَــا أكثر حتَّى فُوجئَا بجمُوعٍ منَ النَّمْلِ الشَّــرِس وكأنهُ ينبعُ منَ الأرضِ.

قالَ فادى:

– يجــبَ أَنْ ننتبَه يا عامر .. هذَا النملُ مُؤذٍ، ويمكنُ

أَنْ يتلبسَ بثيابنَا وأحذيتنَا أو ينقلُ إليناَ الجراثيمَ، علينَا أَنْ نبتعدَ مِنْ هنَا وبسُرعة. مَا شأننَا بالشَّجرة إنْ كانتْ تصرخُ أَوْ كانتْ تضحكُ وتقهْقِهُ؟!

قالَ عامر بفرح:

– المهمُّ أننَا شَاهدْنَا ظَاهرة عجيبةً لا تصدَّقُ، يمكنُ أنْ نضيفهَا إلى معلوماتنَا.

أجابَ فادى ساخرًا:

بلْ إلىَ مفَاجآتنا.

وأخذَا يفكرانِ فِي سرِّ الشجرةِ العمْلاقة، ولماذَا تصدرُ عنهَا تلكَ الأَصْوات، قالَ عَامر:

– هلْ يمكنُ أنَّ النملَ يحفرُ فى الأرضِ حولهَا جيوبًا تدخلُ إليها الريحُ فتصفِّرُ هكذَا؟

قال فادى:

– ولماذَا لا يكونُ هذَا بفعْل الفئرانِ والأرانبِ وجحورهَا أَكْبر وسراديبهَا أطْول؟

قَال عامر:

– عَلــى أَىِّ حالٍ لا بــدَّ أنْ ألتقطَ صُورةً لهَا حتَّى تظلَّ تذكارًا بينَ أيدينَا.

قَال فادى:

– هيَّا بسُــرعةٍ .. ولكنْ منْ أَىِّ زاويةٍ ستلتقطُ الصُّورة؟ إنَّهَا تبدُو وكأنهَا عَائلة منَ الأشــجارة وليسَــت شَــجَرة واحــدَة .. ألاَ تَــرَى هذِه الأغْصَان المغروسَــة فِى الأرض وكأنَّ كلًّا منْهَا شَجَرة؟

والتقطَا صورةً للشــجرةِ، ثم مضيَا فِى اتجاهِ الشمْس التى تشــرقُ منْ حيثُ أتيَا بالأمسِ عندمَا ســمعَا صَدَى ضَحِكَات.

لَمْ يجرؤْ عامر عَلى أنْ يلتفتَ، لكنَّ فادِى قالَ لهُ وهو يمسكُ بذرَاعه:

– أنا سألتفتُ هلْ تظنُّ أننَا فِى أرضِ الجَان؟

وخطفَ بصرهُ بســرعةٍ إلــى الوراءِ فرأى قســمًا منْ جذعِ الشجرةِ الأم منخورًا عَلى شكلِ وجْه لامرأةٍ عجوزٍ وكأنَهَا تضْحكُ.

قال بذُعْرٍ:

– انظرُ يا عامر .. انظُرِ الشجرةَ العجوزَ تهزأُ بنَا.

ومَـا أن التفتَ عامر ورأى المنظـرَ حتَّى صرخَ وولَّى هاربًا ليسبقَ فادى، ثُم ارتمَى على الأرضِ لاهثًا.

قَالَ فادى:

– لـمْ أعرفكَ جبانًا إلى هذَا الحَـدِّ .. هلْ ظننتَ أَنَّ الشجرةَ ستجرِى وراءَنَا؟!

وعندَ آخرِ كلمةٍ لفظهَا سمعَ مَنْ يردِّدُ صوتَهُ: الشجرةُ وراءنَا .. الشجرةُ وراءنَا.

قال لعامر:

– لمـاذَا تقلِّدُ صوتِـى يا عامر؟ هل تبثُّ فى نفسـكَ الخوفَ بدلاً مِنْ أنْ تتشجَّعَ؟

ازدادَ خوفُ عامر وَأخذَ يرتجفُ وهوَ يُقْسِـمُ بصوتٍ خافتٍ رَاجف:

– أنا لمْ أفتحْ فَمِى .. لمْ أتكلَّم.

ضمَّ كلٌّ منَ الطرفينِ الآخرَ وهوَ يشجِّعُ رفيقهُ، فسمعَا

حركةً فوقَ أحدِ الأغصَان: رفعَ فادى رأسـهُ فرأى ببغَاء ضخمًـا ملونًا بِألـوانٍ بديعَةٍ وهَو ينظـرُ إليهمَا بفضُولٍ وكأنهُ يتَسمَّعُ.

قال فادى:

- وأنتَ الآخر ماذَا تريـدُ؟ هلْ ينقصنَا ببغَاء مثلكَ؟ لاَ .. لنْ نَصيدكَ.

ردَّدَ الببغَاء:

- نصيدكَ .. نصيدكَ.

فضحكَ كلٌّ مِـنْ فادى وعامر، وفَـادى ضحكَ أَكثر، لأنهُ شـعرَ بالمسـؤُوليةِ نحوَ عامِر الذِى بدأَ الاطمئنَانُ عَلىَ وجْهِهِ.

قالَ فادِى:

- لقْد حسـبْنَا حسـابًا لكثيرٍ منَ الأَشـيَاء، لكننَا لمْ نحِسبْ حسابَ الببغَاء.

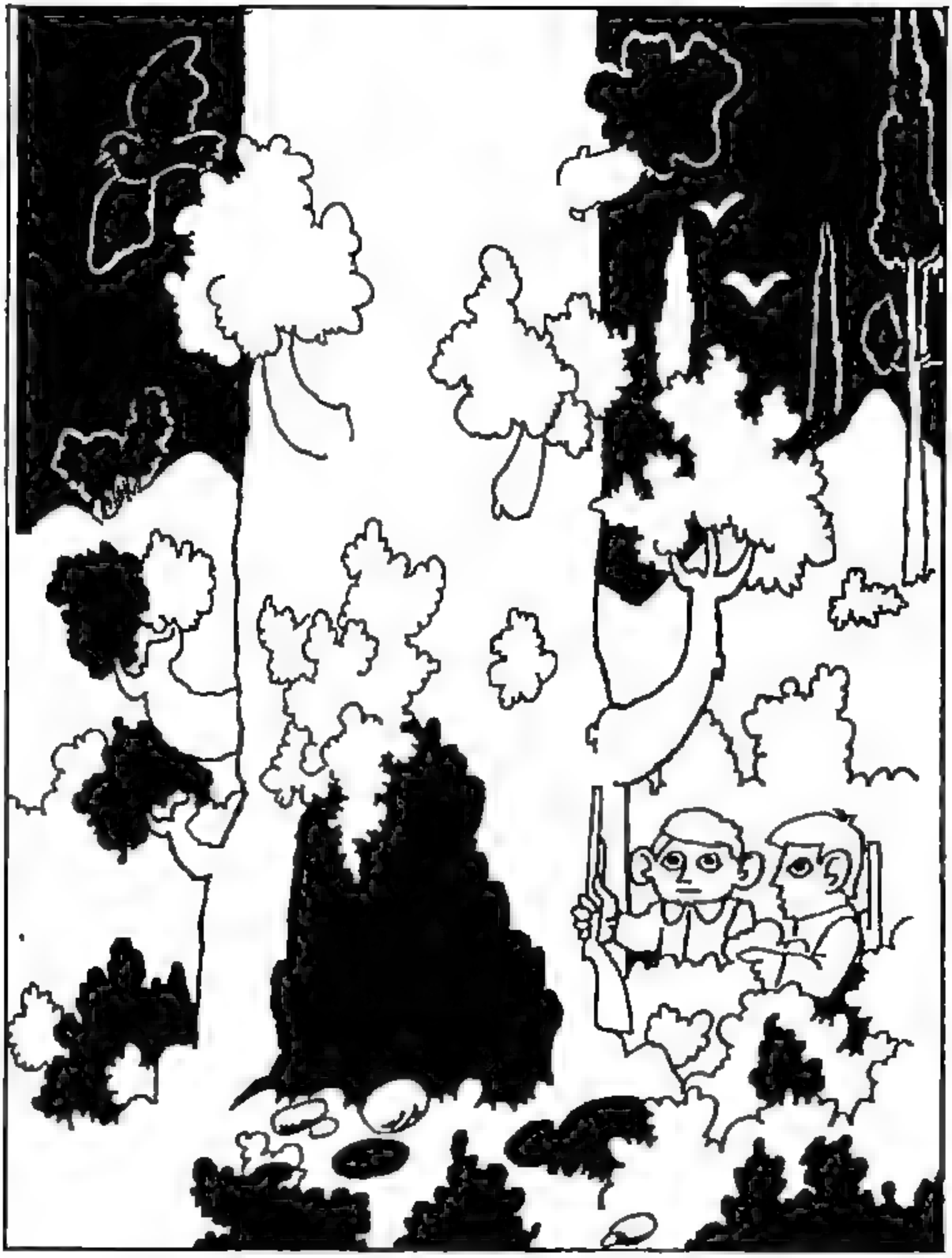
وسَـارَا مُتَمهِّلينَ حَذِريـنَ وقدْ تحوَّلَا إلـى كُتلةٍ منَ اليقظَةِ والانتبَاهِ حتَّى يكونَا مُستعدِّينَ لمفَاجأَةٍ جَدِيدَةٍ.

شجرة الناسك

سارَ الفتيانِ عامر وفادى مسافةً طويلةً باتجَاه أشعَّة الفجْـر ليهتديَا إلى حيـثُ المخَيَّـم وَأبواهما وجمَاعة الصَّيد. أحسَّـا بتعبٍ شـديدٍ، وعطشٍ وجوعٍ، وَتَرَاخت أقدامهمَا وهيَ تغوصُ فِـي الأرضِ الرَّطْبة، فجأةً وجَدَا نفسيْهمَا أمامَ شجرةٍ كبيرةٍ ضخمةٍ جذْعهَا أَجْوف وكأنهُ مغَـارة صَغِيرة، والأغصانُ تتدلَّى فوقَ التجويفِ وكأنهَا تحْنُو عليهِ وَتسترهُ عنِ الأنظارِ، توقفَا فقالَ عامر:

– لمـاذا لا نسـتريحُ فِي قلـبِ هذِه الشـجرةِ؟ تبدُو وكأنهَا بيتٌ صَغِير.

لَـمْ يَرُد فادى، لأنهُ كانَ يتفحَّـصُ بعينيْهِ مَا بدَاخل التَّجْويفِ أَوْ هذَا البيتِ الصَّغيرِ كَمَا سمَّاهُ رفيقهُ، فلاحظَ بعدَ أَنْ سـلَّط الضوءَ الكاشِـفَ أَنَّ فيهِ –فعلا– ما يشـبهُ البيـتَ: غطاءٌ من الكتانِ، وآخرُ مـنَ الصوفِ وكلاهمَا رثٌّ بَالٍ وممزَّق، وفـراشٌ من القشِّ، ووعَاء كأنهُ مقطع



فجأة وجدَا نفسيْهما أمام شجرة كبيرة ضخمة

مِنْ نباتِ اليقْطِين الجَـاف، وحجَارة صغيرةٌ، وأدواتٌ بسيطةٌ من حجَرٍ ومعْدنٍ.

قال فادى:

– توقَّف .. انتظِرْ .. مَا يُدرينَا سـرَّ هذهِ الشـجَرة، لعلهَا وَكْرُ لصٍّ أوْ مُجْرمٍ هَاربٍ مِنَ العَدَالة؟

أسرعَ عامر فقالَ:

– وربمَا لوحشٍ كاسرٍ أيضًا.

نظـرَ فادى إليهِ نظرةً عتاب لسـوءِ تقديره، وقبلَ أن يقولَ له وهلِ الوحشُ يستعملُ أوعيةً وأدوَات وأغطية، إذِ انتصَب أمامهمَا رجلٌ ضامرُ نحيلٌ قدْ برزتْ عظامهُ كأنهُ نَاسِـك، لحيتهُ طويلةٌ وعيناهُ غائرتَانِ فِى محجريهمَا، ولكنَّهُمَا تُومضان ببريقٍ غريبٍ إلاَّ أنهُ غيرُ مُخِيف. كانَ يتـوكأُ على غصْنٍ رغمَ أَنه جالسُ مُعْتدلُ الظهرِ مُنتصِبُ القَامةِ.

بُهـت الفتيـانُ والتصقَا بطـرفِ الشـجرةِ وكأنهمَا يريدانِ أنْ يتستراَ بالأغصَان، كانَ الرجلُ يتمتمُ بكلماتٍ

خَافتة، ويمسحُ بيدِهِ اليسرَى فوقَ وجهِهِ ثم فوقَ صدْره. ولمْ يلبثْ أنْ أسندَ عصاهُ فوقَ حجرٍ ثمَّ دخلَ إلى جوفِ الشجَرة، وجلسَ فيهَا وقدْ طوَى رجْليه تحتهُ، ومدَّ يديْهِ الاثنتيْنِ كأنهُ ينادِى الولديْن، وابتسمَ فَظَهرت أسنانُهُ المحَطَّمة.

قالَ عامر همْسًا:

– يبدُو أن هذَا الرجلَ مجْنون.

قال فادى:

– هُس .. انتَظِرْ .. لا يبدُو كذلكَ، إنهُ هَادئٌ وَوَدِيع.

قالَ الرجلُ بصوتٍ خَفِيض:

– منْ أنتمَا وماذَا تُريدَان؟

وقبلَ أن يجيبهُ أحدهمَا أو كلاهمَا عنِ السؤالِ قَالَ الرجُلُ:

– تعاليَا اجلسَا أمامى.. المكانُ يتسعُ لنَا عَلى ضِيقه.

وَأَخذَ يزيحُ الحجـارةَ الصغيرةَ، ويرددُ كلامًا بنغمَة كأنـهَا صَلاة، فاذَا بفادى يضعُ أشياءَهُ على الأرضِ ويدخلُ كأنـهُ مسحُور، وتردَّدَ عَامر قليلًا وهوَ يتظاهرُ أنه يخلعُ محْفظته عـنْ كتفهِ ويمددُ بندقيتهُ على الأرْضِ فسـمعَ فادى يقولُ للرجُل:

– أنَـا فَادى وهذَا عامرُ رَفيقِى .. لقْد جئنَا معَ أَبوينَا وجَمَاعـةَ الصيدِ فـكانَ أن تُهْنَا فِى الغابـةِ، وهَا نحنُ نَسْتدِلُّ علىَ طريقِ العودَة.

هزَّ الرجلُ رأسـهُ بحَنان، وقـالَ بينَما ينضمُّ إليهمَا عامر:

– منذُ متَى وأنتمَا تائهَان؟

قالَ فادى بسرعَة:

– منذُ أَمس .. وقدْ تعبنَا جدًّا.

قالَ الرجلُ:

– وأينَ قضيتمَا اللَّيْلَ؟

ردَّ عامر:

– فِـى المغَـارة .. تلـكَ المغَارة إلى جانـبِ مغَارة الغزلَان، وكانتْ ليْلة صعْبة وهَا نحنُ لا نزالُ تائهينَ.

قالَ الرجلُ وقدْ رفعَ رأسـهُ ينظرُ إلى السـماءِ وَإلى جهَاتِ الغَابة الأربع:

– سـأدلكمَا علَى الطريقِ.. بعدَ أَنْ تسـتريَحا وتأكلَا وَتشربَا.

نظرَ كلٌّ منْ فادى وعامر أحدهمَا إلى الآخر: منْ أينَ لهذَا الرجلِ وَهُوَ فى هذهِ الحالةِ بالطعَام والشَّراب؟

وكأنمَا فهمَ الرجلُ مَا يدورُ فِى بالهمَا فقَالَ:

– الـرزقُ منْ عندِ الله يَا أولاَدى.. هذهِ هِىَ السَّـاقية أمامنَا.. وهذَا هو الشجرُ يطرحُ ثَمَرًا.

ومَـا إنْ أتمَّ كلمتهُ حتى وقعَت بعـضُ ثمارِ التينِ منْ أعلىَ الشجرةِ، وانتبهَا إلى خريرِ الماءِ إلى جَانبيْهمَا.

ولمْ تلبثْ أن مرتْ عنزةٌ ممْتلئَة الضرع أمامهم ثُم توقّفت فحلبهَـا الرجلُ وقـدّم لهمَا حليبًا دافئًا سـائغًا، وقفَ الفتيانُ مشْدوهينَ، قالَ الرجلُ:

- قبلَ أَنْ تنصرفَا أريدُ أَنْ أُحدثكمَا عنِ الشجرةِ، إنهَا شَجَرةُ التينِ، الشجرةُ المباركةُ التى ورد ذكرهَا فِى القرآن الكريم، وَالتِى أقسمَ الله تعالىَ بهَا فقالَ جلّ شَأنه: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [1]

دائمًا يَا أولَادِى، أتعبَّدُ وَأَتأمَّلُ فى مخلوقاتِ الله تحتَ هذهِ الشَّجرة المباركَةِ، تاركًا المالَ والأهلَ والولَدَ.

أطرقَ الفتيَان يُفكران تفكيرًا عميقًا فيمَا سمِعا، قالَ الرجلُ:

- هذهِ الشجرةُ هىَ المكانُ الذِى أتعبدُ فيهِ.

سأل عامر بنبْرَة حادَّةٍ:

- وأولادكَ أليسَ لكَ أولاد؟

قالَ الرجلُ:

- نَعَمْ .. لِى أَوْلَاد.. وهُمْ أكبرُ منكمَا .. رَبَّيتهُم تربيةً صالحةً وهُمْ يعيشُونَ فِى القريةِ، وقدْ يأتونَ إلَى هنَا

---

(١) سورة التين من الآية ١ : ٣.

بينمَا أنَا فى حالةِ تأمُّل وتعبُّد فى هذَا المكانِ المنعزلِ.. انتظرَا فقدْ يَأتِى إلىَّ أحدُهُم فِى أىِّ وَقْتٍ.

فقالَ فادى:

– لا نسـتطيعُ أن ننتظِرَ يجبُ أن نلتحقَ بالمجموعَة الَّتِى جئنَا معهَا إلى هذهِ الغَابة.

ضحك الرجلُ وقَال:

عَلى أى حالٍ لقدْ سررتُ بكمَا وكأنكمَا منْ أولادِى.

أضافَ فادى:

– وهلْ تنامُ هنَا فِى الليالِى العَاصفةِ كليلةِ أمْس؟

قالَ الرجلُ:

– لا .. أنَا آوِى إلىَ مغَارة اخترتهَا لنفْسِى .. لكننِى نادرًا مَا ألجأُ إليهَا.

تعجَّبَ الفتيانِ فادى وعامر مِمَّا يسمعَان. لبثَا مُطرقيْنِ صَامتيْنِ وكأنهمَا لا يريدَان فراقَ هذَا الرجلِ حتَّى برزَت أنوارُ الشمْس، فقالَ الرجلُ:

– ليأخذْ كلٌّ منكمَا ورقةً فيهَا خرَيطة الغَابة وعَلامة

علىَ الطرِيقِ الذىِ تريدَانِ أَنْ تتوجَّهَا إليْه.

قال فادى:

– ورقةٌ واحدةٌ تكِفى، لنْ يَفترِقَ أحدنَا عنِ الآخرِ.

قالَ الرجلُ:

– أعرفُ أنكمَا لنْ تفترقَا .. هذَا جيد .. لكنِي كتبتُ فــى كلِّ ورقةٍ كلماتٍ مُبَارَكة، ســوفَ تصونُ كلًّا منكمَا وتحفظُه منَ الأَذى والمتَاعب. إنَّ لكلِّ مخلوقٍ فِى الحياةِ قَدْره الخَاصّ.. وَدَرْبهُ الخَاصُّ.

ولمْ تكُن تلكَ الأوراق الاَّ منْ نباتاتٍ جَافة .. سَمِيكَة، سمْراء وعريضَة أيضًا كأنهمَا أوراقٌ منَ التَّارِيخ.

قَدَّمَا شكرهمَا للرجلِ الذِى خرجَ منَ الشجرةِ واختفَى فى داخِلِ إِحْدى المغَارات.

ومَا أســرعَ ما اهتديَا إلى الطريقِ .. وعندمَا وصلَا إلى جَمَاعة الصيــدِ والجَميع فِى حالةِ قلق شَــديد يتأهبونَ للبحْثِ عنهمَا فِى الغابةِ قدمَا إليهم الأَوراقَ التِى كانتْ دليلهمَا فِى الرجوعِ الآمِنِ السَّريع.

ونظرَ الرجالُ بعضُهم إلى بعضٍ غير مصدِّقينَ .. لكنَّ والدَ فادى قالَ:

– إنَّ ابنِى لا يكذبُ، وهذهِ الورقةُ برهَان نَاصع.

أردفَ والدُ عامر:

– وابنِى كذلكَ لا يكذبُ .. وبرهَانه معهُ أيضًا.

وتمنَّى الرجالُ لوْ يَزُورونَ الرجلَ المتعبِّدَ تحتَ شجرةِ الزيتونِ ... إنها شجرةُ النَّاسك .. لكنَّ الظروفَ لمْ تسمحْ لهمْ بذلكَ.

أشجار وأخبار

لمْ يُصدِّق الولدَان فادى وعامر أنهمَا عادَا إلى أبويهمَا وَإلى مجموعَة الصيَّادينَ.. وكانَ اللِّقاءُ حارًّا وعَاطفيًّا. لكنَّ كُلًّا منَ الأبويْن لمْ يظْهر انشغالُ بالهِ عَلى ولدِهِ أمامَ الجميعِ حتَّى يشعرهُ أنهُ أصبحَ شَابًّا يستطيعُ الاعتمادَ عَلىْ نفسهِ، وخاصَّة فِى رحلةِ صيدٍ كهذهِ.

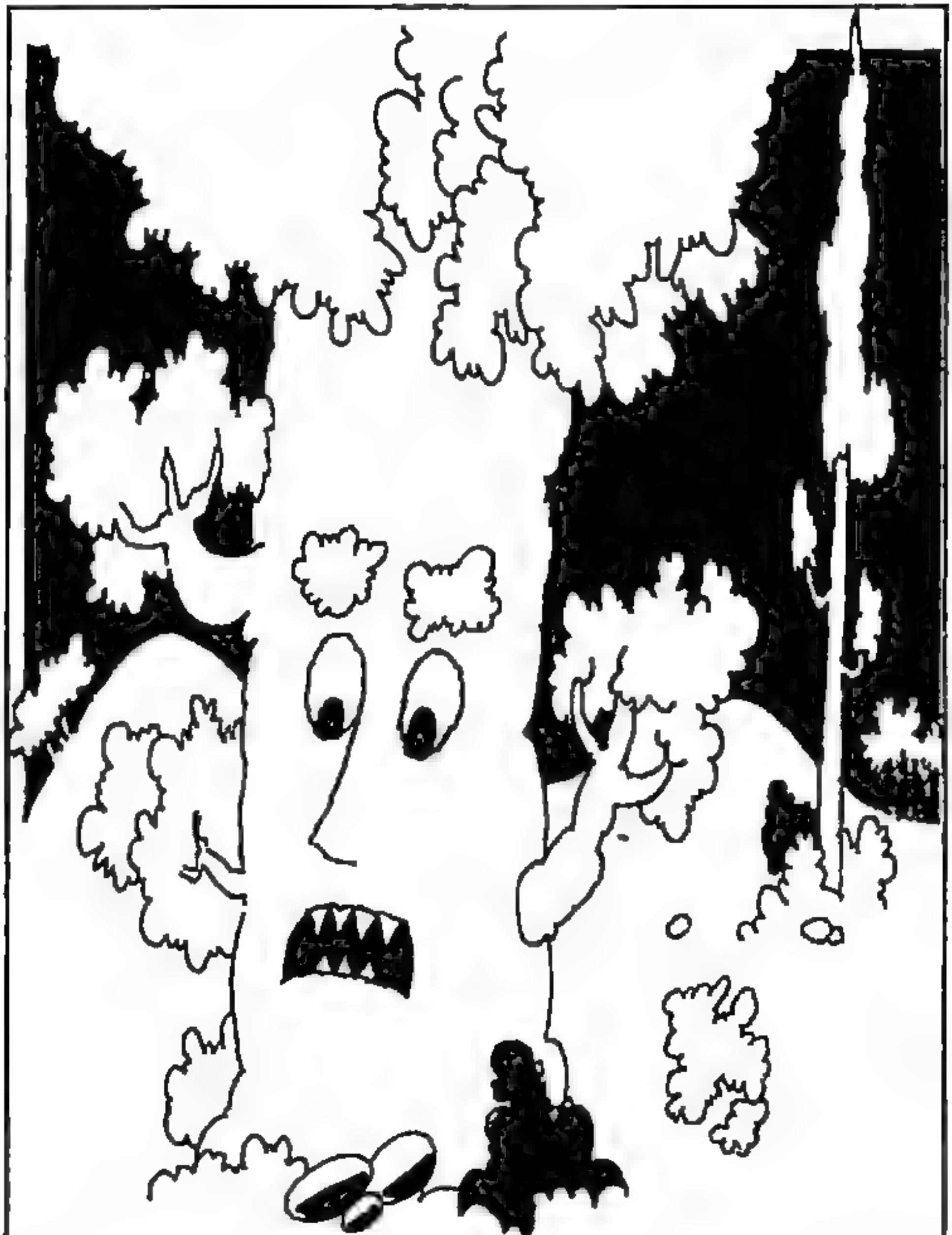
أما فادى وعامر فقد شعرَا أنَّ عليهمَا الالتصَاق

بالمجموعـــةِ حتَّــى لا يقــعُ أىُّ خطإٍ آخــرَ أو ربمَا هذِه المــرَّة. والأهمُّ مــنْ ذلكَ أنهمَا يريــدانِ أنْ يرويَا كلَّ ما جــرَى معهمَــا بِالتَّفصيلِ وخاصَّة فيمَا يتعلقُ بالناســكِ وشَجرتهُ. وقدِ اهتمَّ الجميعُ بمَا سمعوهُ لكنهمْ لم يُفكروا بأنْ يسلكُوا الطريقَ المؤديةِ إلى الشجرةِ ولاَ أنْ يزعجُوا ذلكَ (الناسك) المتَعبد كمَا سَمُّوه.

وفى فَترة الاســتراحةِ أثناءَ اللِّقــاءِ، وخلالَ النهارِ بحثًا عنِ الصَّيد، كانَ جماعةُ الصيادينَ يروونَ العجائبَ والغرائبَ عمَّا ســمعوهُ عــنْ قصصِ الأشــجارِ والولدَان ينصتَان بشغفٍ شَديدٍ، وبفرحٍ أيضًا، لأنهمَا استطاعَا أنْ يُؤثِّرَا عَلى الجميــعِ فيجرُّوهم إلى مثلِ هذهِ الأحادِيث. وبمَا أنهُ كانَ بينهُمْ أساتذةٌ جَامعيونَ وعلَماء فقدِ استطاعَ كلٌّ مِنْ فادى وعامر انْ يطرحَ أســئلتهُ ليتلقَّى الإجَابات العلْميَّةَ الصَّحيحَةَ.

قال والد فادى:

– لقدْ قرأتُ منذُ مدةٍ قريبةٍ قصةَ الشجرةِ المسْحُورة



الصَّيادونَ يروون العجائب والغرائب عن قصص الأشجار.

فِى مَاليزيا التِــى عُمرهَا مائة عام، وَالتِى أعاقتْ رافعَة حَاولت اقتلاعهَا لشقِّ الطرِيق، وظَّلتْ تعيقُ مْشروع شقِّ الطريقِ الســريعِ فِى ولاَية جاهور فتــرةً طويلةً، حتَّى انهــم بعدَ أنْ قطعوهَا لمْ تســتطِع الرافعــةُ القادرةُ علىَ حمْــل (٣٠) طنًّا عَلــى حملهَا، وامتنعَ المشــرفُ عَلىِ الرافعةِ منْ تكــرارِ المحَاولة، لأنهُ حَلُم أحلامًا مُروّعةً هَاجمتهُ فيهَا الأفاعِى. وقدْ تنَاقلتْ وكالاتُ الأنباءِ ذلكَ ونشــرتِ الخَبَر وقالتْ إنَّ الحشــودَ تجمَّعَتْ حولَ تِلكَ الشجرةِ وَهِىَ تنظرُ إليهَا بعيونِ الدهشةِ والاسْتِغراب.

سألَ فادى بلهفة:

- هــلْ هــذَا صحيــحٌ يا أبِــى بــأنَّ هناكَ أشــجارًا مسْحُورةً؟

ردَّ الأستاذُ الجَامعى د. سامى:

- هــذِهِ مُعتقدات لاَ ندرِى مــدَى صحتهَا وَمطابقتهَا للوَاقع، لكنهَا للأسفِ مَوْجودة، عَلَى أى حَالٍ ماذَا يضيرُ لوْ أنهم احترمُوا هذِه الشجرةَ العجُوز وَلَمْ يقتلعُوهَا مِنْ

مكانهَا؟

نحنُ نؤمنُ بالعلمِ، وبالمناسبةِ فقدْ تمَّ اكتشافٌ توصّل إليهِ د. (هاملى جورثــون) الخبيرُ فِى علم النباتاتِ أنَّ الأشــجارَ عندمَا تعطشُ تصدرُ أصواتًا يمكنُ تســجيلهَا بواسـطةِ جَهاز خَاص يرسلُ إشَارات مُعَينة. وقالَ ذلكَ العالــمُ أنهُ أجْرى أبحاثهُ عَلى أشــجَارَ التفاحِ فســجَّل أصواتًا تشبهُ البكاءَ.

صَاحَ عامر بصوتٍ عَالٍ:

- هذِه هِى الأصواتُ التِى سمعتهَا ليلةَ أمس.

ردَّ فادِى بسُرعةٍ:

- لاَ .. ليستْ هىَ، لأنَّ الأمطارَ كانتْ تهطلُ وَالأرضُ ليَست عطْشى.

خجلَ عامر، فردَّ العالمُ د. فتحى:

- ربمَا صَدَرتْ أصواتٌ لســببٍ أوْ لآخرَ لَا بدَّ أَنَّ لذلكَ تفسيرًا علميًا، لكنهَا المعتقداتُ كمَا قال د. سامى.

وها هُمْ فِى كوريا الجنوبية تمكنُوا منْ إنقاذِ شــجرةٍ

عمرهَـا (٧٠٠) عامًا يقالُ إنهَا تبكِــى عندَ وقوعِ كارثةٍ قوميَّــةٍ، وهذَا مَا فعلتهُ عندمَا غـزتِ اليابانُ كوريَا عام ١٥٩٢م، وكذلـكَ عندمَا اندَلعت الحـربُ الكوريةُ عام ١٩٥٠م، إنهَــا شـجرةُ «الجنكة» وَقَـدْ أنقذوهَا حينمَا رفعوهَــا بحرصٍ عندمَــا أرادُوا بنَاءَ سـدٍّ، ثبتوهَا فِى الأرضِ مِنْ جديدٍ وأحاطوهَا بتربَةٍ جيدةٍ.

قال والد عامر:

– علينَا أَنْ نهتمَّ بالكشوفِ العلميَّةِ وليسَ بالخُرافاتِ والمعتقدَات. أليسَ كذلكَ يا عَامر؟

ردَّ عامر:

– طبعًا .. طبعًا .. لكنْ هذِه القصصِ مُشوِّقَة.

قال العالم د. فتحى:

– إذنْ سَـأحدثكَ عَـنْ شـجرةٍ هنديَّــةٍ مـنْ فصيلةِ (الماهوجانى) يطلقُ عليَها اسم شجرةُ «نيم»، ويعتبرهَا السـكانُ شَـافية لعددٍ كبيرٍ منَ الأمراضِ، وَبالفعلِ فقدْ ثبتَ علميًّا ذلـكَ، فبذورُ الشـجرةِ وَلحاؤهَا وأوراقُهَا

تُستخدمُ فِى علاجِ مجموعةٍ لا حصرَ لهَا منَ الأمراضِ ابتداءً مِنَ السُّل وحتَّى الملاريَا. إضافة إلى ذلكَ فهىَ تطردُ الحشَرات بعيدًا عنِ المحَاصيلِ الزراعيَّة.

أضاف والد فادى:

– وكمَا أعلم فَإِنَّ دوَاء الملارَيا الأصلى هُوَ «الكينين» المأخوذ مِن لحَاءِ شجَرةِ الصَّفصَافِ.

قال العالم د. فتحى:

– هذَا صحِيح .. ولقدْ تمَّ اكتشافهُ بالمصَادفة عندمَا وقعَت أشجَار الصفصافِ فِى تجمُّعٍ للمياهِ وشربَ منهُ بعضُ المرضَى فَشُفوا.

قالَ أكبرُ جماعَة الصيادينَ سنًّا:

– سأحدثكمَا ذَات مرةٍ عنْ قصةِ الصفصَاف البَاكى. لا ينسَ أحدكمَا أنْ يذكِّرَنى بذلكَ.

وهكذَا توالتِ الأحاديثُ ... ثم نهضَ الصيادونَ إلى رحلَةِ صيْدهم النهَاريَّة، وعادُوا بصيْدٍ وَفير. وبينمَا أشعلُوا النارَ ليعدُّوا طعامًا منَ الأرانبِ البريةِ والطُّيور،

وكلابهُـم قدْ أغفَتْ مُتعبة وهيَ تَلهثُ، قَال عامر لفادى بصوتٍ خَافت:

- غَريـبٌ .. هذِه الكلابُ جَائعة.. وهيَ التِى حملَت مَـا تمَّ صَيْده بأنيابهَا لكنهَا لمْ تأكلْ منهَا شـيئًا.. وهىَ الآن تنامُ وَ لا تطالبُ بشيءٍ.

قَال فادى:

- مـا هذَا الـذِى تقولـهُ يَا عامـر؟ أليسـتْ كلابُ صيـدٍ مُدَّربَة، ثُمَّ هلْ نسـيتَ أنَّ الـكلابَ أمِينة وَوَفيه لأصحَابها؟

نهضَ عامر وقالَ:

- لابدَّ أَنْ أوقظهَا لتشـهدَ شـواءَ اللَّحمِ قبلَ أنْ تأخذَ حِصَّتهَا منهُ.

الصفصاف الباكى

عندمَـا انتهَـى العشـاءُ اللذيـذُ وَآوى الجميـعُ إلى الخيمَـة، كانَ لابدَّ من سـهْرةٍ صغيرةٍ قبـلَ أنْ يداعبَ

النومُ الأجفَان، كانَ عامر أكثرُ الجميعِ نشـاطًا وتحمسًا للحَدِيث، سألَ موجِّهًا كلامهُ إلى الرجَلِ الأكبرِ سنًّا منْ مجموعَة الصَّيادينَ:

– ألمْ تُعْطِنِـى وعدًا بأنْ تقصّ علـىَّ قصةَ الصفصَاف البَاكى؟

ضحكَ فادِى وقدِ انضمَّ إليهمَا بسرعةٍ قائلًا:

– ألمْ ينصحْنَا د. فتحى بأَنْ نهتمَّ بالعلمِ لاَ بالخرافةِ والسِّحر؟

قال الرجل:

– ومـعَ هذَا .. لا بأسَ منْ انْ نسـتمعَ إلِىَ الخرَافَاتِ والأسَاطير وَقصص السـحرِ ونحاولُ أنْ نفسرهَا، المهمُّ ألاَّ تُؤَثِّرَ عَلى تفكيرنَا فَنَعْتقد بهَا اعتقادًا جازمًا، أوْ أنْ نخافَ بسببهَا ممَّا لاَ يستدِعى الخَوْف.

قال عامر:

– أنـا أعرفُ أننِى قرأتُ قصةً عنِ الصفصافِ الباكِى، لكنِى لمْ أعدْ أذكرهَا.

قال الرجل الوقور:

– هنـاكَ قصـصٌ كثيرةٌ .. ولعلَّ كلَّ شـعبٍ ينسـجُ أسطورتَهُ الخاصَّة حولَ الصفصَاف، لكنهَا جميعًا تدورُ حولَ محورٍ واحدٍ هـوَ أنَّ الصفصافَ ينبتُ على ضفاف الأنهـارِ وقربَ تجمُّعَـات المياهِ، وَلاَ يعيـشُ إلاَّ علىَ الضفافِ.

ثُمَّ صمتَ وفكَّر قليلاً وبعدهَا قالَ:

– ما رأيكُـم أنْ نبتكرَ الآنَ بعـضَ القصصِ عَلى هذَا الأساسِ .. وهو حبُّ الصفصافِ للماءِ؟

نظرَ فادى وعامر كلٌّ منهمَا إلى الآخرِ، وقدِ التمعَت العيونُ ببريقِ الدَّهشةِ.

قال فادى:

– لاَ بأْس .. سأبدأُ أَنَا.

قال عامر:

– حسـنًا .. ولكـنْ ليسَ قبلَ أنْ أعرفَ لماذَا سـموهُ «الباكى»؟

ضحكَ الرجلُ الوقورُ وقَال:

- التفسيرُ بسيطٌ.. أليسَ يشربُ كثيرًا منَ الماءِ؟ طَبيعي أنْ يتبخرَ هذَا الماءُ بفعلِ الشمسِ، ربمَا بعدَ غيابهَا مُباشرة فيبدُو كالدمعِ.. أو ربمَا تناثرتِ المياهُ فوقهُ بفعلِ تيَّارٍ أو منحدرٍ أو اصْطدامِ صخرةٍ فيلوحُ هذَا الرذاذُ وكأنهُ قطرَات دمْعٍ.

قال فادى:

- ولماذَا لا يكونُ الباكِي لأنه يقتربُ كثيرًا منَ الماءِ، وتتدلَّى أغصانهُ فوقَهُ؟

قال الرجل:

- هذَا تفسيرُ جَيد أيضًا.. يستطيعُ المرءُ أنْ يفسرَ كَمَا يريدُ، والمهمُّ أنْ يكونَ هذَا التفسيرُ معللًا ومقبولًا.

قال عامر:

- لنستمعَ إلى مَا سيبتكرهُ فادى، ثُم بعدَ ذلكَ يأتِي دَوْرِي.

قالَ الرجلُ الوقورُ:

– بلْ سـأبدأُ أنَا .. لاَ تظنَّا أننـى أُبتكرُ تمامًا لأننِى ربمَا كنتُ مُتأثرًا بمَا سمعتُ فِى طُفولتى.

تقولُ قصةُ الصفصافِ البَاكى أنَّ فارسًا شجاعًا مقدامًا دَافعَ عنْ وطنهِ دفاعًا شديدًا حتَّى امتلأَ جَسدهُ بالجرَاح.. وبمَـا أنَّ الجريحَ يطلبُ الماءَ، فقدْ زحفَ بصُعوبة حتَّى يبلغَ ضفةَ النهرِ ليشـربَ ويسْقِى حِصَانه .. لكنهُ مَا أنْ أوشـكَ أنْ يضعَ فمهُ قـربَ الماءِ، حتَّى فـارقَ الحيَاة، فتألمَ جوادهُ منْ أجلهِ ورمىَ رمحَ الفارسِ بفمهِ فى الماءِ فتحَوَّلَ إلى شجرةٍ صفصَاف أخذتْ تبكِى الفَارسَ طوالَ حياتهَـا. وهكـذَا فعلَت كلُّ أشـجَار الصفصَاف دونَ أنْ تفارقَ المِيَاه.

قال عامر وهوَ يصَفق:

– قصةٌ رائعَة .. والآن دوركَ يا فَادى.

قالَ فادِى:

– وأنــا أظـنُّ أنَّ أمَّ هذَا الفارسِ هــىَ التِى بكتْ عَلى ابنهَا قربَ النهــرِ، فبكتْ معهَا أشـجَار الصفصَاف..

وظلتْ تبكِي دائمًا .. ولهذَا سموهُ الصَّفصاف البَاكي.

ارتبكَ عامر قليلاً عندَما جاءَ دورهُ، فقالَ الرجلُ وكأنهُ يعطِيه فرصَةً منَ الوقتِ أوْ يساعدهُ على فكرةٍ مَا:

– وَلاَ تنسُوا يَا أولاد أنَّ الصفصافَ ينبتُ بغزَارةٍ على ضفافِ الأنهارِ حتَّى الصغيرةَ منهَا وبُسرعة، وأنَّ الأنهارَ هيَ أساسُ المدنِ بلِ الحضَارات، فلولاهَا كمصدرٍ رَئيسي للحيَاة لمَا كانَ زرعٌ ولا ضرعٌ ولا عاشَ بَشَر، ومنْ أجلِ المياهِ تقومُ الحروبُ والمنازعَات.

قال عامر فرحًا:

– إذَنْ .. نستطيعُ القولَ إنَّ جيشًا منَ الأعداءِ أرادَ أَنْ يكتشفَ النهرَ ليسْتولى عَلى الأرضِ ولمَّا لمْ تَستَطع أغصَان الصفصَاف وَجذوعهِ أنْ تخفِي النهرَ وانتصرَ الأعداءُ، ظلَّ عَلى أكتافِ المَاء يبْكِي وينتحبُ فَسموهُ الصَّفصَاف البَاكي.

ضحكَ الرجلُ الوقورُ وقالَ:

– هَا قِد استطعنَا أنْ نخلقَ منْ خيالنَا أسَاطير جَدِيدة

نصوغهَا كمَا نشاءُ لنفسِّرَ مِنْ خلالهَا الأشيَاء.

لقدْ آثرتُما اهتمامِي بــأنْ أضيفَ قصةً جديدةً: يُحْكى أنَّ شــابًا وفتاةً كانَا يحبانِ بعضهمَا جــدًّا.. وَلمَّا اختطفَ رجلٌ شِرِّيرٌ هذهِ الفتاةَ وأرادَ أنْ يجتازَ بهَا النهرَ ليخفيهَا فِي بلادهِ تعثَّرَ الحصانُ بجذوعِ أشجار الصفصافِ، وارتبكَ بفروعهَا فسقطَ فِي الماءِ وغرقَ الرجلُ، وراحتِ الفتاةُ ضحيَّة.

فحــزنَ الصفصافُ وأخــذَ يبكِي عليهَا هوَ والشــابُّ حبيبهَــا فُســمى الصفصافُ الباكِــى، وَأُلفــتِ الأغانِي الحَزينَة فِي مُناجَاةِ الصفصَاف وَالحبيب.

أطرقَ الثلاثةُ بعدَ ذلكَ -واجمينَ- كما لوْ أنهمْ تَأَثَّرُوا بالقصــصِ الَّتِي اخترعوهَا، أوْ كأنمَــا يفكرونَ فى قصةٍ جديدةٍ، فقالَ الرجلُ الوقورُ:

- لماذَا لا نَقومُ إلى النومِ؟ أعتقدُ أننَا سنزعجُ الآخرينَ ولو أننَا نتكلمُ همسًا.

قال فادى:

- لكننِى لا أشعرُ برغْبةٍ فِى النَّومِ.

أضَاف عامر:

– وأناَ كذلكَ .. هلْ نستطيعُ أنْ نجلسَ خارجَ الخيمةِ ونتحدَّثُ؟

قالَ الرجلُ:

– تَســتطيعونَ بالطَّبعِ .. ولكنْ عليكمْ بإشعالِ النَّار، حتَّى لا تقتربُ منكُم الحَشرَات أو يهاجمكُم حيوانٌ ما.

أجابَ عامر:

– والأَفاعيِ أيضًا .. أليسَ كذلكَ؟

عقَّبَ فادى:

– لَكِنَّ هذهِ الغابةُ لاَتُوجدُ بهَا الأفَاعيِ كما فَهمتَ.

أردفَ الرجلُ الوقوُر وهوَ يسحبُ غطاءهُ فوقَ رأسه:

– لا يخلُــو الأمــرُ .. لاَ يخلُــو الأمــرُ .. والاحتياطُ واجبٌ.. والحذرُ مطلوبُ.

وإذْ سَهِرَ فادى وعامر أخذَ كلُّ منهمَا يُثنِى علَى الآخرِ لبراعتهِ فِى ابتكَارِ القصصِ الخَيَالية.

قالَ فادِى:

- سأجلبُ هذهِ الأغصَان لنوقدَ النَّار.

أسرعَ عامر فأشعلَ قطعَةً مِنَ القماشِ مغْموسة بالنَّفْطِ، ورماهَا فوقَ الأغصانِ الشَّاحبة، لكنَّ النارَ لمْ تشتعلْ كمَا يَجب. وَكرَّرَ العمليَّةَ عدَّةَ مرَّاتٍ دونَ فائدةٍ، كأنَّ الأغصانَ مُشبعة بالماءِ وتأبَى الاحتراقَ، فطنَ فادى للأمرِ فقَال:

- أظنُّ يا عامر أنَّ هذِه أغصَان صفصَاف.. ألاَ ترى إلى جذوعهَا الملسَاء الشَّاحبة، وَأنهَا عَديمَة الأورَاق؟ كيفَ ستشتعلُ وهىَ رَطْبة هكذَا؟

قال عامر:

- وَمَا العملُ؟ منْ أينَ سنجلبُ أغصانًا أُخرى فى هذَا اللَّيل؟

وبينمَا همَا يتناقشَـان سمعَا ضحْكة سَـاخرة .. ولمْ تلبثْ أنْ ظهرَت أمامهمَا سَـاحرة عجـوزٌ أخذتْ ترفعُ الأغَصان حتَّى اختارتْ أطولهَا، فاذَا بهَا تمتطيهَا كأنهَا حصَان ثُمَّ تـهتزُّ يمينًا وشمالاً كأنمَا تودُّ أنْ تَطِير.

صرخَ عامر وقال:

– هلْ ترى مَا أراهُ يا فادى؟

قالَ فادى:

– ومَا الذِى ترَاه؟

قال عامر:

– أنـا أرى عجوزًا تمتطِى غصنًا وتهـزأُ بنَا .. إنهَا قبيحَة وشعرهَا منفُوش وفمهَا بلَا أسنَان ..

قال فادى؟

– أمَّـا أنَا فإننِـى أرى زنجيًّا أسـودَ يجمعُ الأغصَان وينفخُ فيهَا حتَّى تشتعلَ، إنه قبيحٌ مثلُ شيطَان.

وتسـمَّرَ الطفلاَنِ فِـى مكانيهمَا، ثُـم صرخَا صرخَةً واحدةً، أسرعَ الرجلُ الوقورُ وسألَ:

– ماذَا حصلَ؟ هلْ أصابكَما مَكْروه؟

قال عامر؟

– إنهَا السَّاحرةُ العجوزُ تمتطِى الغصْن.

قال فادى:

– بلِ الشيطانُ القبيحُ ينفخُ النَّار.



الساحرة العجوز تمتطى الأغصان كالحصان.

هدَّأ الرجلُ كلاًّ منْ عامر وفادى، وسَاقهما أمامهُ إلىَ الخيمَة، وقَال:

– لمــاذَا حاولتمَــا إشــعَال النَّار منْ هــذهِ الأغصَان؟ إنهَــا منَ الصَّفصــاف .. وهىَ رطْبــة ولا تصلُح الآنَ بلْ تحتاجُ إلى وقتٍ حتَّى تُصبح يَابسة، ونادرًا ما يحرقُون الصفصافَ، بلْ يستخدمونهُ فِى النِّجَارةِ ويصنعُون منهُ أشيَاءَ كَثِيرَةً، إنَّ خشبهُ أَبيض ومَتينِ وَأمْلس.

سأل فادى بِجُرأةٍ:

– أَيمكــنُ أنْ نتأكــدَ يَاعم أنهُ لا يوجــدُ أحدٌ معنَا لاَ سَاحرة ولاَ شيطَان؟ هلْ هذَا مُمْكن؟

قالَ الرجلُ وهُوَ يُحكم سدَّ الخيمَة:

– طبعًا لا يوجدُ أحدٌ، إنهَا أسَــاطِيرُكُم التِى تنبعُ منْ أفكَارِكم.

أسرار الطبيعة

فِى اليومِ الثالــثِ لرحلَة الصيدِ أفاقَ عامر علَى ضجّة

جمَاعة الصيادينَ، وهُم يستعدُّون ليوم صَيْدٍ جديدٍ .. وقد كانَ فادى يُوقظُهُ، بلهفةٍ، وهوَ مخبَّأٌ فِى كيسِ النَّومِ ولا يبدُو منهُ إلاَّ رأسه، قال فادى:

– هيه .. هيَّا انهض يا عَامر .. أيهَا الكسُول .. سننطلِقُ بعدَ دقَائق، هلْ نظفْتَ بندقيتكَ وهيَّأتهَا؟

قال عامر بهُدوءٍ:

– لستُ كسولاً .. وبندقيتِى ليستْ بحاجَة إلى تنظيفٍ أوْ حشْوٍ، لأننِى لنْ أذهبَ معكُم.

ردَّ فادى باستغرْاب:

– ماذَا؟ لنْ تذهبَ معنَا؟ هلْ أنتَ مرِيض؟

قال عامر؟

– لاَ .. لستُ مريضًا .. لكننِى سأبقَى هنَا أمامَ الخيمةِ حتَّى تعودُوا.

ضحك فادى وقالَ:

– ألنْ تخَاف وحدَك؟ ثُم .. قُلْ لِى ماذَا ستفعلُ؟ هذهِ رحلةُ صيدٍ وليستْ نُزهة.

لـمْ يرد عَامر .. لكنَّ الحـوارَ وصلَ متقطعًا إلى وَالده الذِى أسرعَ إليه مُستفسرًا:

- ماذَا أسـمعُ؟ لـنْ تذهبَ معنَا؟ ماذَا سـتفعَل إذنْ؟ أَنسـيتَ أنكَ أنتَ الذِى طَلبت بإلحاحٍ مُرَافقتنا إلى هذهِ الرحلَة وكنتَ فِى غايةِ الفرحِ لمَّا وافقْتُ علىَ ذلكَ؟

قال عامر:

- أما أننِى نسِيتُ فأنَا لمْ أنسَ بالطَّبع .. لكنِنى أريدُ أنْ أبقى معَ الطَّبيعَةِ دُونَ صَيْدٍ.

ولقدْ أَعَارَنى د. سامى هذَا الكِتَاب سَأقرؤُهُ أيضًا.

قَال والدُ عامر:

- تستطيُع أنْ تقرأَ الكتبَ فِى البيتِ .. نحنُ فى رحلةِ صيدٍ .. أَمَّا أنْ تكتشفَ الطبيعةَ فمَا أظُن أنكَ سَتعثُر عَلى أشيَاءَ مهمَّة. الطبيعةُ لمْ يعدْ لهَا أسْرَار .. ونحنُ أصْبَحْنَا نعرفُ كلَّ شيءٍ عنهَا .. وبقاؤكَ هنَا ليسَ مَأمونًا.

قال عامر:

- ولماذَا تعتقـدُ أنَّ بقِائى غيرَ مأمونٍ؟ عَلى أىِّ حالٍ

فالبندقيةُ معِي..

لَمْ يعدْ والدهُ يناقشهُ فهوَ يَحترمُ رغباتَهُ وَأفكارَهُ..

أَمَّا فادى فقدْ شــعرَ بطريقةٍ مَــا أنَّ عامر قدْ غدرَ بهِ، لأنهمَا اتفقَا عَلى أنْ يترافقَا طوالَ الرحْلةِ.

وبعــدَ أنِ انطلقَ الجميــعُ إلىَ أنحَــاء الغَابة، وأخذَ وَقْعُ أقدامهمْ يبتعدُ شــيئًا فشيئًا شــعرَ عامر بشيءٍ منَ الوحْشَةِ.. وَبقليلٍ مِنَ الندمِ لكنهُ لمْ يشعرْ بالخوفِ رغمَ كُل القصصِ وَالأحادِيث التِــي تبادلوهَا بالأمسِ .. عَلى العكِس شــعرَ بالطُمأنينةِ نحوَ الطبيعةِ، وَحُبٍّ مفاجئ لهَا كمَا لوْ أنهُ يتعرَّفُ عَليها بعينٍ جَديدَةٍ.

أخذَ كتابُ «أسرار الطبيعة» وَاستندَ إلى جذْع شجَرة، وبدأ يقرأُ ولاَ أصوَات مِنْ حولهِ، ماعدَا حَفِيف الشجرِ .. وغنَاء بعضِ العصَافير وَالطيورِ الجَاثمة بينَ الأغصَانِ.

وَفجأةً سمعَ مِنْ جذْع الشجرةِ نقرًا متواصلًا كمَا لوْ أنَّ بابًا يُقرع عَليه.

– ما هذَا؟ – قالَ في نفسِه.

إنــهُ حفرٌ منتظمٌ كَما لو أنــهُ مثقَاب .. هَلْ هو وَاهمٍ؟ لَكِنَّ الصوتَ واضحٌ وَحقِيقى، رمىَ الكتابَ وتســلَّقَ قليلًا جذْع الشجرةِ فلاحظَ هذَا الطَّائر اللَّطِيفَ «نَقَّار الخشب» وهوَ يحفرُ عُشَّهُ فِى جذْع الشجرةِ بهمَّةٍ ونشاطٍ، ويواصلُ النقْرَ دونَ أنْ يتوقفَ لحظَةً، لم يحْاول عامر أنْ يزعجَهُ بلْ هبَط دونَ ضجَّةٍ وهوَ يقولُ فِى نفســهِ: ألاَ يحقُّ لهذَا المخْلــوق أنْ يَبْنِىَ بيتَهُ بحريَّةٍ وَفِى المكانِ الذِى يريدُ؟ .. وهذهِ الغَابةُ مَوْطنـــه .. وأنَا الدَّخيلُ عليهِ أوِ الضَّيْف . لاَ .. لَنْ أكونَ الظَّالم والمعتدِى فليفعَل مَا يَشــاء .. لنْ أقبِضَ عليهِ أو أصْطادَهُ.

وبينمَا هوَ مُسْــتلقٍ عَلى الأرضِ تلعبُ فِى رأسِهِ هذهِ الأفكارُ وقعَت فوقهُ إحدَى السَّحالى..

نظرتْ إليهِ بعُيونٍ ضِفْدعيَّةٍ ..مرَّتْ فوقَ ذراعهِ بأمانٍ ثُم تسـلَّلت فِى طريقهَا. لمْ يلبثْ سنْجَابٌ صَغير أنْ أطلَّ عليــهِ منْ فوقِ غُصن بوجهـهِ الصَّغير وعُيونهِ الثَّابتة. مَا إنْ حرَّكَ عامر يدهُ حتَّى وَلىَّ منَ الفَزَعِ، فسقطَتْ مِنْ بَيْنِ

يديْهِ الشَّوكيَّتيْن جوزةٌ صغيرةٌ لعلهَا زادَ يومهِ.

تأثَّــرَ عامر جدًا .. تَمَنَّى لوْ يعْــرف أينَ يَخْتبئُ هذَا السـنجابُ ليعيدَ لــهُ جوزتهُ. حطَّت بعــضُ العصَافير أمامهُ وهو يتناولُ الشطَائر.. لم يتحرَّك .. ولمْ تفزعْ هىَ منهُ، لانشغالها بالتقاطِ فتاتِ الخُبز.

– يَا الله .. –قالَ عامر فِى نفسِه– إنَّ الطبيعةَ مسَالمة ووديعَة، لكننَا نحنُ البشرُ نزرعُ فيهَا العنفَ والدمَار.

عندمَا شَــبعت العصافيرُ رفرفتْ بأجنحتهَا وطَارت غَير بعيدٍ عنهُ، هذِه هى الطبيعةُ الَتِى يسمونهَا حَيوانيَّةً مــازالَ أمامهَا الكَثِير منَ الفتاتِ، لكنَّ العصَافير اكتفتْ فتركتهَا لغيرهَا، وبالفعــلِ فقدْ حطَّت عصافيرُ أُخرى. تُرى هلْ يفعلُ البشرُ ذلكَ بأنْ يأخذُوا كفَايَتهم ويتركوُا مَا تبقَّى لِسِوَاهم؟

لاَ .. إنَّ الإنســانَ جَشِــعُ وطمَّاع، حتَّى ولوْ شبعَ فانهُ يأكلُ كميةً إضَافيَّةً لوْ أرادَ.

لمْ يقرأْ عامر كثيــرًا فِى الكتابِ الذِى بينَ يديهِ، بلْ

أخذَ يقرأُ منْ كتابِ الطَّبيعةِ نفسهَا، صحيحٌ أَنَّ الحيوانَ يقاتــلُ الآخرَ وربمَا يفترســهُ، لكنهُ يُدافــع عنْ بقائهِ وَطعَامِهِ فقطْ .. إلاَّ أنهُ لا يفعلُ ذلكَ بدوافعِ الأذَى والشَّرِّ وَالتدميرَ، ثُم إنهُ عندمَا يكونُ شَبْعانًا فهوَ لا يعتدِى علَى غيرهِ. أمَّا النباتُ والشــجرُ فهمَا أكثر ودَاعة ومسَالمَة، لا ينتقــلُ أحدٌ منهمَا مِنْ مكَانـــه.. وينغرسُ فِى الأرْضِ منتظرًا ما تجودُ بهِ السماءُ من مطرٍ والأرضُ منْ غذاءٍ..

وهُو يقدِّمُ النفعَ للإنســانِ منْ طعَامٍ ودوَاء ومنْ كسَـــاء أيضًا. ألا يستخْرِجُونَ كثيرًا منَ الموَادِّ منْ لحاءِ الأشجَار التِى تُسَــاهم فِى حياةِ الإنسَان؟ ألاَ تدخلُ الأخشابُ فِى البناءِ والأثاثِ وَفِى كثيرٍ منَ الاســتخْدَاماتِ حتَّى الورَق الذِى نكتبُ عليْهِ؟

هذَا ما قرأهُ ســابقًا .. وما يعرفُه منْ تَحصيلهِ العِلمىِّ .. ثُم أنهُ لولاَ النباتُ والشجرُ لمَا كانَ الهوَاء الذِى يحيطُ بنَا صالحًا لأَنْ نَتَنَفَّسهُ.

تنهَّد عامر وقالَ:

– إنَ الطبيعةَ جميلةٌ وسَخِيَّة .. لمـاذَا إذنْ نظلمهَا ونقسُو عليهَا؟

وبينمَا هُو فِى تَأَملاته، لاحظَ نملةً صغيرةً تحاولُ أَنْ تسحبَ قطعةً مِنْ فتَاتِ الخُبْزِ فتعجزُ عنْ ذلكَ وتسقطُ منهَا .. مرَّتْ نملةٌ أكْبرِ منْهَا احتكَّت بالنملَةِ الصَّغيرةِ ولعلهَا كلَّمتهَا ثــمَّ انطَلقتْ مُسْرِعَةً وعَادتْ ومعهَا نِمَالٌ كثِيرةٌ، ساعدَ بعضهَا النَّمْلةَ الصَّغيرة عَلى سحْب قطعَةِ الخبزِ، وانتَشَـرت الأخرياتُ باحثَـاتٍ أيضًا عنْ طعامٍ جديدٍ بروحٍ منَ التعاونِ مُدْهِشة.

قال عامرٌ فى نفسه: هَا هوَ النملُ يفوقُ البشرَ تعاونًا، فلماذَا نظلـمُ الحيوانَ فنقولُ إنهُ حيـوَانٌ ونقصِدُ أنهُ لاَ يفْهَم؟!

نهـضَ عامر مِنْ مكانهِ، وأخذَ يتمشَّـى فِى الغَابةِ .. وإذَا كلُّ شيءٍ يبوحُ لهُ بسرٍّ مِنَ الأسرَار.. النباتُ والشجرُ .. والزهرُ .. حتَّى الحشـرَات التِى تدبُّ عَلى الأرضِ، قالَ فِى نفسهِ:

- أنا لنْ أكونَ عدوًّا للطَّبيعَة .. ولنْ أُسَاهمَ فِي الاعتداءِ عليْهَا .. سوفَ أنتسبُ إلى جمعيَّةِ أصدقَاء الطَّبيعةِ الَّتِي أعلنُوا عنهَا .. ولنْ أصْطادَ بعدَ اليومِ حتَّى لا تنقرضَ هَذهِ الأنواعُ منَ الطيورِ والحيوانَات الوديعَة .. ولَنْ ... ولَنْ.

ثُم عـادَ إلى الكتابِ الـذِى بينَ يديْه، مندهشًا مِنَ المعلومَات الواردةِ فيهِ .. كانَ أكثرهَا يتوافقُ معَ أفكارهِ التِي انبعثتْ منهُ عفويًّا وتلقائيًّا، هَا هُوَ الكتابُ يتحدثُ عنْ نقْص الأكْسيجينَ، ثُقب الأُوزُون فِي الغلافِ الجَوِّى وذلكَ نتيجَة التلوثِ بسببِ النفايَات وَالموادِّ الكيماويَّة والاحْترَاقَـات .. وهَا هوَ يُحذِّرُ مِنَ الإِسـرَافِ فِي قَطْع الغابَـاتِ حتَّى لا تفقدَ الأرضُ الرئةَ التِي تتنفسُ منهَا، إضافةً إلـى انقرَاضِ أنواعٍ لا حَصْر لهَـا منَ الحيوَاناتِ وَالطُّيور.

ولاَ يلبـثُ الكتـابُ أن يفردَ فصلًا خَاصًّـا عنِ البحارِ وَتَدْميرِ الحيَاة فيهَا بكافَّة السُّبُل، وَما ينتجُ عنْ ذلكَ منْ مخاطرَ فُقْـدان الثرواتِ فيهَا منْ غذائيةٍ ونباتيةٍ وكنوزٍ

بحْريَّةٍ. وَخَاصَّة عندمَا تسـقطُ فِى البحَـار النفاياتُ أَوْ تتعرضُ لكوارثَ إشْعَاعيَّة أو نفطِيّة.

شـعرَ عامر بحُبٍّ كبيرٍ للطبيعَـة بجبالهَا وبحارهَا وغاباتهَا وحقولهَا وبسـاتينهَا وأنهارهَا فَأغلَقَ الكتابَ وهوَ يفكرُ أنهُ سَيُعبِّرُ عنْ هذَا الحُبِّ بالعملِ والممارسَةِ، فدخلَ إلـى الخيمَة وأخذَ عُلْبَـة الخرطُوشِ وقذفَ بهَا بعيدًا نحوَ الغابةِ، عندمَا سـمعَ صـوتَ فادى يُناديه:

عامر .. عامر .. ماذَا تفعلُ؟

التفتَ فرأى صَدِيقهُ يُهَرْولُ نحوهُ لاهثًا وهوَ يَسْأله:

– لماذَا ترمِى ذَخِيرتـكَ هكذَا يَا عامرِ؟ هلْ جُنِنْتَ؟ ماذَا حصلَ معكَ فِى غِيَابنَا؟

قالَ عامر بهدوءٍ:

– أنَا لمْ أجِنَّ بعدُ ... ولمْ يحصلْ معِى أىُّ شىءٍ، سوَى أننِى فهمتُ أُمورًا كانتْ غَائبَة عَنْ ذِهْنِى.

قالَ فادى:

– مثلُ ماذَا يَا شَاطر .. يَا فَهِّيم؟

قالَ عامرُ بحزم:

- أرجوكَ .. لا تسخرْ منِّي يَافادى .. هذهِ أفكَارِى ولَنْ أُحدثكَ عنهَا.

قالَ فادِى بجديَّةٍ:

- شيءٌ واحدٌ أُريدُ أنْ أَفْهمهُ لماذَا ترمِى بذَخِيرتكَ؟

قال عامر:

- منْ أجلِ أَنْ تأخذهَا أنتَ .. خذهَا مادمتَ عثرت عليهَا.

وَقَلِبَ فادى شَفَتيْهِ اسْتغرابًا، بينمَا وصلَت جماعةُ الصيَّادينَ فلزِمَ الصَّمْت.

الشجرة الغريبة

مَا إنْ وصلَت مجموعةُ الصيادينَ وكلاَبهم وهُم يصْخَبونَ ويمرحُونَ، وقدْ أثقلتْ أَيْدِيهم الخيوطُ التِى تنظمُ الفرائسَ، حتَّى انسحبَ عامر بصمْتٍ نحوَ الغابةِ، لاَ يُرِيدُ أنْ يكلِّمَ أحدًا.. وبصراحَة فهوَ غيرُ مُطْمئن أَنَّ

فادِى لــنْ يذيعَ قصةَ رميــهِ لعلبَة الخرطُــوش ومَا دَار بينهمَا منْ حديثٍ.

سَأله والدُه سؤالًا عابرًا:

- إلَى أينَ يا عامر؟

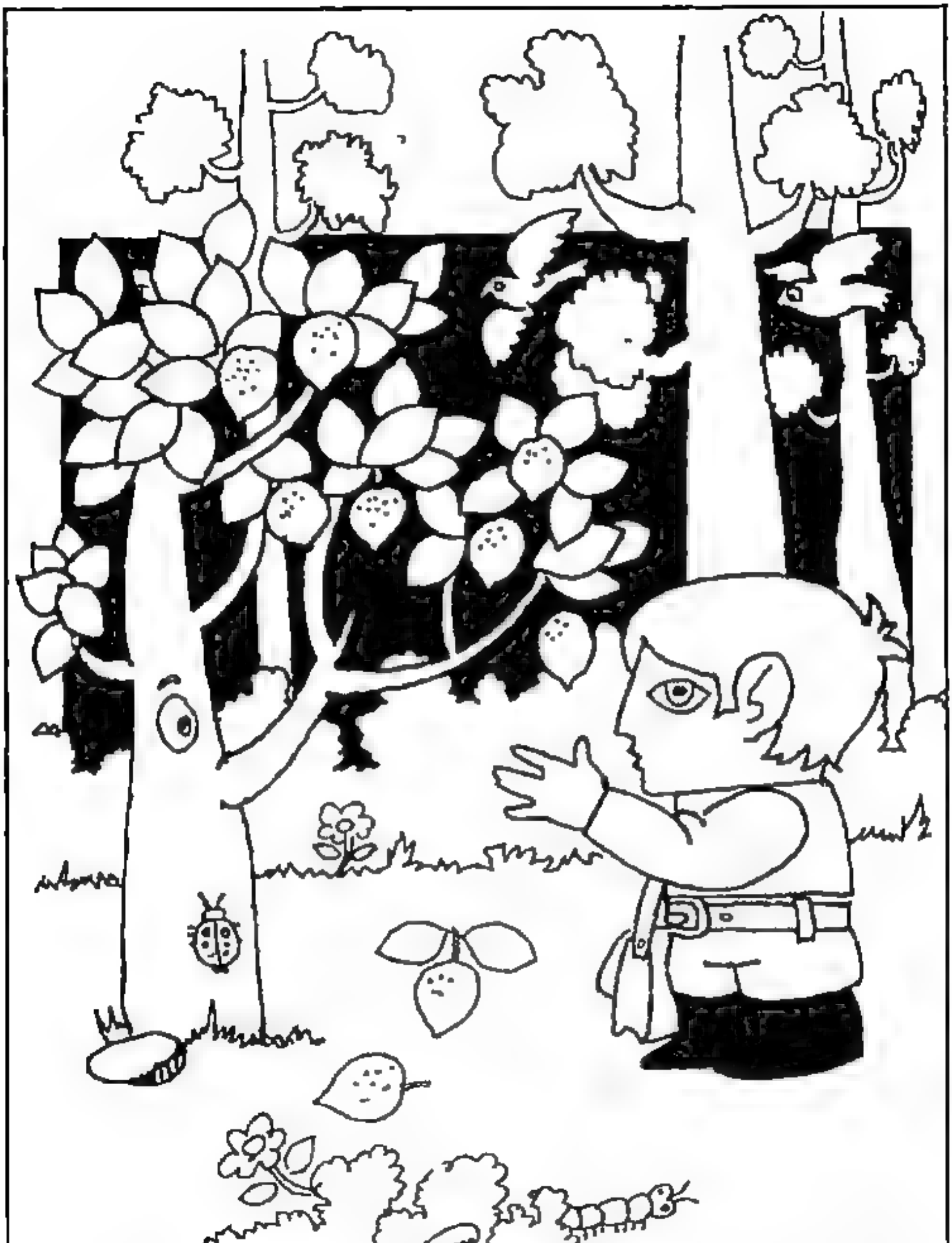
أجابَ عامر بِاخْتصَار:

- إلى الغَابةِ أتنشَّقُ هواءً منعشًا.

ضحكَ الأب وقالَ:

- وَكأنكَ لســتَ فيهَا هــذِه الغَابة .. عَلى أىِّ حالٍ لاَ تتأخرُ سنعدُّ الطّعامَ والشِّوَاءَ.

توغلَ عامر فِى الغابةِ مُطرقًا مُفكِّرًا .. لا يدرِى المسَافةَ التِى قطعهَا .. والشــمسُ بدأتْ تنسحبُ منْ فوقِ رؤُوسِ الأشــجَار، عندمَا توقفَ فَجْأةً حينمَا دَاستْ قدماهُ فوقَ كُراتٍ طريَّةٍ تنبَّهَ وَنظَر فإذَا بِهِ أمامَ شجرةِ لَيْمونٍ عَجوزٍ يبسَت أكثرُ أغصانِهَا، أمَّا التِى بقيتْ خضْراء زَاهية فقدْ كانتْ مُحمَّلة بثمارٍ صفْراء تُشبه قَنَاديل كَهْربائية مُعلقة فِى سقفٍ مهْجور رفعَ قدميْه منْ فوقِ الثمار المعْطُوبةِ.



إلى الغابة أتنشق هواءً منعشًا.

ثمَّ التقطَ أُخرى، لمْ يتطرقْ إليهَا الفســادُ بلْ ظلّت يانعَةً مُمْتلئَةً بماءِ الحيَاة.

قالَ فِي نفسِهِ:

– شــجرةُ ليمونٍ فِي غَابة ليسَ فيهَا أشجَارٌ مُثمرةٌ؟ هذَا غرِيبٌ..

وكأنمَا سمعَ صوتًا يصدرُ عنِ الشجرةِ يقولُ: حقًّا إنهُ أمــرٌ غَرِيب .. وأنَا الشــجرةُ الغَرِيبــة، وَأنتَ هَلْ أنتَ غريبٌ أيضًا؟

قالَ عامر:

– بــلْ أنَا زائرٌ للغَابَةِ .. أوْ عابرُ ســبيلٍ .. مَنِ الذِى زرعكِ فِى هذِه البقعَةِ المجهُولةِ ثُم تركَكِ لمَصيرِ البؤْسِ و اليأسِ؟!

قالتِ الشجرةُ:

– لاَ أَدرى مَنِ الذِى زَرَعنِى .. وربمَا ســقطَتْ بذْرتى منْ فم إنســانٍ مرَّ مِنْ هنَــا بالمصَادفة .. أو رماهَا منقَار عُصفــورٍ طَائر .. أو ربمَا ســاقتهَا الريحُ أوْ نقلتهَا أقدامُ

حيوانٍ مَا.

المهمُّ أَنِنِي تفتحتُ عَلى الأزهارِ وَالثمَارِ وأنَا غريبةٌ وحيــدَة .. لاَ أَحدَ يعْتنِي بِي .. وَلا يقطفُ ثمارِي .. ولا يجددُ حيويَّتِي حتَّى أَوْشكتُ -كَما تَرَانى- علَى الجفَافِ ومنْ ثَمَّ الموْت.

قالَ عامر:

– وماذَا تُريديــنَ أنْ أفعلَ منْ أَجْلكِ الآنَ؟ هلْ أَغْرِسُ بعضَ بذوركِ فِي التُّربةِ؟

ضحكَتِ الشجرةُ الغريبةُ بمرارةٍ وقَالت:

– كثيــرًا مَا قذفتَ بثمــارِى ذَاتِ البذورِ هنَا وهنَاكَ .. وبعيدًا أيضًا .. عسَــى أَنْ تنبتَ بِــذْرة وَاحِدة منهَا، وأشــاهدهَا شَــتلة فوقَ وجهِ الأرضِ. ولكنْ عبثًا .. ولقدْ توسَّــلْتُ إلى الريحِ.. والأمطارِ .. والشمسِ أنْ تُساعدنِي عَلى ذلكَ ولكنْ دونَ فائدةٍ.

قال عامر:

– والآنَ .. ما العملُ؟ أريدُ أَنْ أســاعدِك .. مَا أنا إلاَّ

زائــرُ عابرٌ كَما قلتُ لــكِ .. وجودِى فِى الغابةِ لنْ يكونَ لأكثر منْ يومٍ وَليلةٍ.

اهتزتْ شجرةُ الليمونِ فَأسْقطتْ مَا تبقَّى من ثمارهَا.. ورأى عامر ســائلًا يترقــرَقُ فوقَ جذعهَا كأنــهُ دُمُوع، قالَ:

– ماذَا تُريدينَ مِنِّى أَنْ أفْعلَ؟

قالتِ الشجرةُ:

– أريــد أولاً أنْ تجمعَ هذهِ الثمــارَ الجيدةَ الناضجةَ وتأخذهَا معكَ هديةً منىً.. ربمَا تُفيدك.

قال عامر:

– وثَانيًا؟

قالت:

– بعدَ أنْ تضعهَا فى كيسكَ هذَا أريدُ أنْ تقطعَ أغْصَانِى كلَّهَا وتغرِســهَا فِى هذهِ الأرضِ لتكونَ يومًا مَا أشــجَار ليمونٍ جدَيدةٍ وَفتيـة.

قال عامر:

– ولمَـاذَا مَادُمْـتِ أنتِ لمْ تكُونِى مَسْـرورة فِى هذِه الغابَة؟

أجابَت الشجرةُ:

– صَحِيح .. ذلكَ لأننِى كنتُ وَحيدة وَغريبة، لكنَّنِى وقدْ أصْبحتْ هذِه البقْعة موطِنى وفيهَا سَأدفنُ فبوُدِّى أنْ أتركَ ورائِى عَائلةً منْ شـجَرِ اللَّيمونِ، لنْ يشْـتكى أحدٌ منهُم الغُربة .. بل سيكونونَ سعدَاء معَ بعضِهم بعضًا.

اقتنَـعَ عامر بمَا قالتهُ الشـجرةُ، وأخذَ يقـصُّ فروعهَا الخضْراء بعنَاية، ويغرسـهَا فِى التربةِ حولَ الشجرةِ كمَا لـوْ أنهُم صِغَار حولَ أُمهم. تأكدَ مـنَ انغِراسِ الأغصَانِ فِى التربةِ وَسَـوَّى الترابَ جيدًا، ثُمَّ حملَ كيسَ الليمونِ، وبدأ بالانصرَافِ عندمَا سَمِعَ سُقُوطَ شىءٍ وَرَاءه فاذَا بجذْعِ الشَّجرةِ وقدِ انتزعتْ منهُ الفروعُ يقعُ فيقولُ عامرٌ فِى نفسِهِ:

– يالهَا منْ شـجرةٍ غريبَةٍ تعيسَـةٍ .. لكنهَا حَكيمَة عَلى أىِّ حَالٍ.

عندمَا عـادَ عامرُ إلى المخيَّمِ كانتْ جماعةُ الصيادينَ

مُتْعبَــة، وفَادى يَتَّكِئُ عَلى ذرَاعِ أبيهِ ووجْهه شَــاحِبٌ وهوَ يسعلُ سعالاً خفِيفًا.

أســرعَ عامر نحوهُ بلهفةٍ، ولمَّا تأكــدَ أنهَا الحَرارةُ وربمَــا الحُمَّى، رمَــى ما بيديْهِ وَبادرَ إلــى إيصَاله إلى فراشِــهِ، ثمَّ وضعَ فوقهُ غطاءً سميكًا، وجلسَ صامتًا وقدِ احتضنَ يَدَىْ صَديقِه، وعندمَا تأكَّدَ أَنَّ الحرارةَ فى ارتفاعٍ خرجَ مِنَ الخيمةِ ليخبرَ وَالدَ فادِى فتعثَّرَ بكيسِ اللَّيمونِ وكأنمَا سمعَ ما قالتهُ الشجرةُ: خذْ هذِه الثمَارِ إنهَا ذَات فائدةٍ كغــذَاءٍ ودوَاءٍ، ورائحتهَا مُنْعشَــة، فلمْ يلبثْ أنْ قطعَ عددًا منَ الليمونِ عَلى شكلِ دَوَائر، كمَا عَصَرَ بعضًا منهَا، ليقدمهَا إلى صديقهِ عَسىَ أنْ تنفعَهُ.

وبالفعــلِ مَا إن مضَى قســمٌ مــنَ الليلِ حتَّــى هبطَتِ الحــراراةُ وانتعــشَ فــادِى، وعندَ الصباحِ كانَ نشــيطًا مُعَافى، لكنهُ لمْ يشَــأْ أَنْ يرافــقَ مجموعةَ الصيادينَ فِى يومِ صَيْدهِم الأخِيرِ، لأنهُ يفضِّلُ أنْ يبقَى مَعَ رفيقهِ.

وهكذَا رَوَى عامــر لفادِى كلَّ ما جرَى معهُ، ومَا دارَ

منْ حــوارٍ بينهُ وبينَ الشــجرةِ الغَريبــة، وكانَ فادِى يتعجَّبُ جدًا ممَّا يَســمعُ، ولــولاَ الليمونَات المنقذَات واســتعدَاد عامر ليصطحبهُ حتَّى يرَى الشــجرةَ بنفسهِ لكانَ لهُ موقفٌ آخرُ هو عدمُ التَّصْديق.

وبمَا أنهُ أعلنَ لعامر أنهُ ربمَا يذهبُ ليرَى الشجرةَ، فقدْ أرادَ عامــر أنْ يتجنبَ أَىَّ مفاجَأة كأنْ لاَ يســتطيعُ فادى سمَاع صوْتِ الشَّــجَرةِ، أَوْ إقَامة الحوَار معهَا، أَوْ ربمَا الشجَرة نفسهَا لنْ تقيمَ حوارًا معهُ هوَ وَعامر نفسهُ فكيفَ إذَا كانَ فَادى؟

فكَّر قليلًا ثم قَال:

– لاَ يَا صديقِى لنْ نـذهبَ إلى الشــجرةِ مَا الفائدةُ مِنْ ذلكَ؟ فالشجرةُ ماتتْ وانتهَتْ، واللَّيمونات معنَا وتحتَ استخدامنَا.

ابتســمَ فادى ابتســامةً غَامضةً، وخرجَ مــنَ الخيمةِ ليغسلَ وجههُ إعلانًا عنْ شِفَائِهِ.

أشجار للزينة

لبثَ عامر فِى اليـــومِ الثالثِ للصَّيدِ معَ رفيقهِ فَادِى، ليعْتنِى بـــهِ بعدَ نزلةِ البـــردِ التِى أُصيـــبَ بهَا، بينمَا انطلقـــتْ جَمَاعةُ الصَّياديـــنَ نحَو الرحلـــةِ الأخيرةِ فى المرحَلةِ الأَخيرة.

وهكذَا استطَاع الرفيقان أَنْ يتحدَّثَا طَويلًا، وبصَراحَة، وأنْ يكشفَ كلٌّ منهمَا أَسْرارهُ للآخرِ. فَمِنْ أسرارِ فادِى، أنهُ بعـــدَ أَنْ أفلحَ فِى إصابةِ الأَهدافِ فِى الصيدِ، قَرَّرَ أنْ ينضَمَّ إِلَى «جمعية الصيد»، وَسيكونُ أَصْغر عضوٍ فى الجمْعيَّة، وســـتكونُ لهُ امتيـــازَات كَأَنْ يُعْطى بُنْدقيـــةً وذخيرةً وأنْ يحضرَ الاجتماعَات فِى النادِى، وربمَا جعلُوهُ دَليلًا.

قال عامر:

– وكيـــفَ تطمحُ أنْ تكـــونَ دليلًا، وقـــدْ عجزْتَ عنِ العثورِ عَلى طريـــقِ العودةِ عندمَا تُهْنَـــا منذُ يوميْنِ فِى هذِه الغابَةِ؟

قال فادى بحنْق:

– سأكونَ قدْ درستُ الخرائطَ ومخططَ الطرقاتِ فِى المدينةِ، وكذلكَ سأتعرفُ جيدًا عَلى الغابةِ منْ خلالِ رحَلات صيدٍ مُتَكَرِّرَة.

لَمْ يَرُدّ عامر بلْ فكَّر ألاَّ يطلعَ فادى عَلى سرهِ، لولاَ أَنْ تعاهَدَا أَنْ يبوحَ كلٌّ منهمَا للآخر بمَا يهدفُ إليهِ فى المسْتقبلِ، فقَالَ باختصَار:

– أمَّا أنَا فسَأنضمُّ إلى جَماعة البيئةِ هذَا قرارِى الأَخِير.

وَلَمَّا استرسَلَ فادى فِى تلوينِ أحلامهِ ووصْفِ نفسهِ كصيَّادٍ مَاهرٍ ينالُ الجوائزَ والأوسمَة، ويكسبُ مالاً كثيرًا بالإضَافَةِ إلى متعة الصيدِ كَرياضةٍ، قَال عَامر:

– أراكَ قادرًا عَلى أنْ تبقَى وحدكَ فِى الخيمةِ لتحلمَ كمَا تشَاء .. وأنا سأقومُ بجولةٍ فِى الغَابة.

قال فادى مَازحًا:

– لا تنسَ إذنْ أَنْ تتعرفَ إلى الطرقاتِ جيدًا فهذَا سَيَنفعكَ أيضًا.

واغتــاظَ عامر وخرجَ إلى الغَابة حتَّــى طرفهَا الجَنوبى الذِى يوصلهَا بالطَّريقِ الأَسْــفلِتى للمدينَة. سَار وهوَ يتأملُ كلَّ شــىءٍ فِى طريقهِ منْ أَشــجار ونباتَات، ومَا يُصَادفه منْ حَيَوانــات، فتوصَّل إلىَ نتيجةٍ هِىَ أنَّ الطبيعةَ وَديعَةُ، ولَا تُؤذى البشــرَ بلْ هُم الذينَ يؤذونهَا، وأصبــحَ مُصممًا أكثر عَلــى أَنْ يكونَ منْ جماعــةِ البيئةِ، مَادامــت الطبيعةُ تَمُدُّ البشرَ بكلِّ هذهِ الخَيْرَات، وَبالجمَالِ وَبتنقيَةِ الجوِّ أيضًا.

وفجأةً وجدَ عامر نفســهُ أمامَ بيتٍ صغيرٍ منَ الطُّوبِ الأحمــرِ مثــلَ وردَةٍ نَاريــة بيــنَ الأخضرِ مِــنَ النباتِ وَالشَّــجرِ، وهذَا البيتُ موصولٌ بصَوْبَةٍ زُجَاجيَّةٍ وَاسِعةٍ وَكبيــرةٍ، يبرقُ تحــتَ النورِ مثْل صَدَفة بلــونِ اللُّؤلؤ، تردَّدَ فِى الدخولِ وَأوشكَ أَنْ يقفلَ راجعًا عندَما اسْتوقفهُ رجلٌ يبدُو أنهُ المســؤولُ عنِ المــكَان، ودعَاه للدخولِ، كانَ الرجلُ يبتسمُ لهُ وكأنهُ يرحبُ بقُدومه.

دُهِــش عامر ولمْ يلبــثْ أَنْ دخلَ فازدَادت دهشــتهُ لِمَا رَأى: أَشــجار منْ أنواع كثيرةٍ مَحْبوســة فِى أُصُصٍ

بَلاستيكية وفخَارية وزُجَاجية بمخْتلفِ الحُجُوم، زَاهِيةً خَضْراء لاَمِعَة. وَأعدادٍ هَائلةٍ منْ أنواعِ النباتَات والأزهَار والورُود، وَكثير منَ الأشجَار الصَّغيرة التِي تُشبه أشجَار الغَابة بفصائلهَا وَخاصة السرو وَالأرزَ والبلّوط، وعندمَا أطالَ النظرَ إليهَا وكأنهُ يريدُ أَنْ يلمسهَا قالَ الرجلُ:

أنتَ تزورُ مركزنَا للمرةِ الأُولَى عَلى مَا يبدُو. هَلْ أَعجبكَ؟

قال عامر:

– الحقيقةُ أَنَّ زيارتِي مُصَادَفَةً .. جئتُ معَ الصَّيادين فِي الغَابة.. وبينمَا أنَا أتجولُ وصلْتُ إلى هُنَا.

قال الرجلُ:

– عَلى أيِّ حالٍ لَا بدَّ أَنْ أطلعكَ عَلى مَا تودُّ الاطلاعَ عليْهِ.

قال عامر:

– أَهمُّ شيءٍ هيَ هذِه الأشجَار الصَّغِيرة .. إنهَا كاملةُ النموِّ .. مَا عُمرها؟

ضحكَ الرجلُ وقَال:

- هـذِه أشـجَار مُقزّمة .. وَالتقزيم أسـلوبُ حديثٌ الآن وَنـادرٌ أيضًا، اسـتخدمَ عَلـى الأشـجارِ المثْمرةِ والخضرَاوات، وبعدَ ذلكَ على أشـجَار الغَابات بهدفِ استخدَاماتٍ مُعينةٍ منهَا أشجَار الزينةِ.

قال عامر:

- وهلْ هذَا عكْس فرْط النموِّ؟

قال الرجلُ:

- تمامًا .. وهو يخضعُ لشروطٍ مُعينةٍ فِى الزرعِ والرَّىِّ والتقْليم وَفِى التحكُّم بالفسَـائل أَو الشتلاَت فِى تحْديدِ النُّمو. صحيحٌ أَن تسَـارع النموِّ وفرطِهِ أصبحَا معروفيْنِ وخاصَّة للاسْتِهلاَكِ، لكنَّ عمليَّةَ التقزيمِ أصْعب.

قال عامر:

- هـذَا عجيـبٌ أَنْ يحصلَ المرءُ علىَ شـجرةٍ كاملةٍ حقيقيَّةٍ فِى أَصِّيصٍ صَغيرٍ وهى شجرةٌ قزمَة.

قال الرجل:



ضحكَ الرجلُ وقَال: هذِه أشجَار مُقزَّمة.

– وماذَا فِي ذلكَ أَلاَ يوجدُ أقزامٌ مِنَ البشَرِ؟
قالَ عامر:
– طبعًا يوجدُ.
قال الرجل:
– وما الفــرقُ، كلُّ ذلكَ ظَواهر طَبِيعيَّــة .. إنمَا هنَا يُوجَدُ تحكُّم.
قال عامر:
وهلْ أثمانُ هذِه الأشجَار عَادية كسَائرِ أشجَارِ الزِّينة؟
ضحكَ الرجلُ وقالَ:
– طبعًا لاَ .. لأنَّ العنايةَ بهَا أكبرُ بكثيرٍ، وقدْ تفشلُ عدةُ تجاربٍ لتنجحَ وَاحِدَة .. وتحتاجُ إِلى زمنٍ أطْول.
قالَ الرجلُ:
– يبدُو أَنَّكَ اهتممتَ بهذَا الأمرِ كثيرًا.
قال عامر:
– ليــسَ أننِي اهتممتُ بلْ أصبحــتُ مهمومًا، لماذَا لاَ نتركَ الطبيعةَ على حالهَا ولا نتدخَّل فيهَا؟

قال الرجل:

– هذَا موضوعٌ آخرُ واسعٌ وشديدُ التعقيدِ، وخلاصتهُ أنَّ الإنســـانَ مادامَ يسَــخِّرُ الطبيعةَ لخدمتـــهِ فلماذَا لا يســـتعملُ كلَّ وَسَـــائل العلـــم وأرقاهَا؟ تَعَـــالَ ... تعالَ لاطلعــكَ عَلى مَا تحتوى عَليةَ الصُّوبةُ منْ أجْمل الزهورِ والورودِ وَالنبَاتات.. إنهَا لوحاتٌ رائعةٌ بألوانٍ مُبتكرةٍ جديدةٍ لمْ نعرفْهَا فِى الطّبيعةِ.

وقامَا بجولةٍ وعامر فِى غايةِ الدهشَةِ، ولمَّا توقفَا عندَ الجناحِ الأكبرِ لأشجَار الزينةِ ممَّا أصبحَ مألوفًا فِى البيوتِ والمكَاتب، وَفِى كلِّ مكانٍ يعيشُ فيهِ الناسُ، أحسَّ بقيمةِ ما تمنحُهُ اشجارُ الزينةِ هذِه منْ متعةٍ وجمَالٍ، وَمِنْ تنقيَةٍ للجوِّ وتنظِيفِ الهوَاء، انحَنى عَلى شُــجَيْرَاتٍ صَغِيرةٍ لا تــزالُ فِى كُومَـــاتٍ مَحْدودَةٍ منَ التـــرابِ وَملْفُوفة بعنَايةٍ بأورَاقٍ بلاَسْتيكيةِ بيضَاء مِثْل أَطْفالٍ صغَارٍ لَا يزالونَ فِى المهْد، فداعبهَا بحنَانٍ وقَالَ الرجلُ:

– هــذِه للهدَايا. كمْ عددُ جماعـــةِ الصَّيادينَ؟ لابدَّ أنْ

نُهْدِيهم منهَا، لماذَا لاَ تدْعُوهم لزيارةِ الصُّوبَةِ؟

قال عامر:

- سَأفعلُ عندَ عودتنَا.

وانصرفَ باتجَاهِ الغابةِ وهوَ مطرقٌ يفكرُ عندمَا تذكَّر أَنَّ لديْهِ أسئلةً كثيرةً يريدُ أَنْ يوجههَا لصاحبِ الصُّوبةِ فقفـلَ راجعًا. فَلَمْ يجدهُ فِي الصُّوْبَةِ، فاتجهَ نحوَ البيتِ المبْنِى بالطُّوب الأحمرِ الذِى أثـار اهتمَامه مُنْذُ البَدْءِ. فوجَدَ حَدِيقة صَغيرة جَميلة، مُنَسـقة تنسـيقًا بديعًا، ووجَدَ بابَ البيتِ مفتوحًا، ورغمَ ذلكَ قرعَ جرسَ البابِ ثمَّ دخلَ وَوصلَ إلى بهْو بسيطِ الأثاثِ لكنهُ مُزيَّن بأنوَاعِ الورودِ وَالزهور، وفيهِ مَكتبة كبيرةٌ تتصدرهُ. ومنْ بابٍ مُنْخفضٍ دخلَ إلى غرفَةِ صاحب البيتِ الخَاصَّة:

هِىَ غُرفةُ مَعِيشـةٍ أوْ نَـوْم أوْ مكتبٍ بـلْ هىَ مَزيجٌ مِنْ كلِّ ذلكَ وقفَ مُندهشًـا أمَامَ شَجَراتٍ أقزام بأحجام مختلفةٍ مُزينة بالشرائطِ الملَونةِ والمصَابيح الكَّهْربَائيةِ الصَّغيرةِ، وفِى وسـطِ كلِّ شـجرةٍ صُورةٌ لطَفلٍ تسمرَّ فِى

مكانهِ عندمَا انتبهَ الرجلُ إليه فقالَ:

– هَا أنتَ فِى غُرفة أسْرارى، لا بأسَ أنتَ مثلَ ولدِى .. وأَنتَ فَتى طيبٌ ومُسَالمٌ وَتحبُّ الطبيعةَ. هذهِ الشَّجرات فِى عُمر أولادِى، بَلْ كلٌّ منهَا ولدٌ مِنْ أوْلاَدى.. وَصورتهُ فِى قلبهَا. لقــدْ زَرَعتهَا واحِدةً بعدَ الأُخرى كُلَّمَا رُزِقْتُ بولدٍ أَوْ بنتٍ. ماذَا أقولُ؟ كُلهم أولاَدى ما عدَا ليْلى. انظرْ كمْ هىَ جَميلة مثْل مَــلاَك. لكنِنى عندمَا فقدتهُم جميعًا دفعةً واحدةً إذْ غَرَقُــوا فِى مركبٍ معَ أُمهم، قَرَّرتُ بعدَ أنْ هجرتُ البحرَ واسْتوطنتُ الغابةَ أنْ أعملَ عَلى تَقْزِيم هذِه الأشــجَار حتَّى تظلَّ صَغِيرة بلْ طِفْلة. وَهِىَ تُذَكرنِى باسْــتمرارٍ أَننِى مــعَ أولادى وَخَاصَّة عندمَــا أعتنِى بهَا وأسامرهَا فِى الليلِ تحتَ ضوءِ القمرِ ومعَ بريِق النُّجوم. كَمْ جَعَلتنى هِوَايتى هذِه فِى الصُّوبَةِ أنْسى آلامِى وَأحْزَانى .. بلْ أشــعرُ أحيانًا أننِى سَعِيد. هلْ هناكَ ما هُوَ أسْخَى وأجملَ وأكثرَ عطاءً منَ الطبيعةِ؟ إنَّ الطبيعةَ وحدهَا هىَ التِى تشعرنَا بالحياةِ والبقاءِ والخلُودِ أيضًا.

أَحـــسَّ عامر بحبٍّ كبيرٍ نحوَ هــذَا الرجلِ، وكانَ قَدْ أَوشــكَ أَنْ يعتبرهُ قاســيًا يتحكَّمُ فِى الطبيعةِ وَيتلاعبُ بهَا، وأنهُ ربمَا يقصدُ الربحَ مِن وراءِ مشْروعهِ هذَا.

سألهُ باهتمَام شديدٍ:

– إذنْ فأنتَ تعيشُ وحدكَ هنَا.

قَال الرجلُ:

– لا .. لســتُ وحْـدِى ومعِــى كُل هُــؤلاء الأولاَد .. أقصدُ أشــجَارى وَنبَاتاتى التِى تحتاجُ مِنِّى إلىَ الرعايةِ والعنَايــة بلْ إلىَ الحنَان. هلْ تعرفُ أنّ النباتَات تحسُّ وتشعرُ كالبشَرِ، وَترسلُ أمواجًا كَهْربائيةً، إذَا ما عَطَفَ عليهَا أحدٌ أوْ سَقَاهَا؟

وَنَباتات أخرى تُرســلُ أمواجًا كأنهَــا صَاعقة إذا مَا عُوملَت بِقَسْــوةٍ أَوْ جَرَتْ أمامهَــا حوادثُ قتلٍ أوعنفٍ، هذَا مَا رصدهُ العلماءُ بواسطَة أجهزةٍ حَسَّاسة للغَاية.

ليسَ هذَا فقطْ، بلْ إنَّ النباتَات والأشجَار تتألمُ حينمَا تمــرضُ وقَدْ تقررُ الموتَ أَوْ الانتِحَار، فلاَ يُجْدى معهَا

أىُّ دَوَاء. ثُم إنَّ العلماءَ أثبتوُا أنَّ جذُور الأشجَار تتخَاطب فيمَا بينهَا تحتَ الأرضِ، ولهذَا تترك مَسَافات بينَ جِذْرٍ وَآخرَ تحقيقًا لهذَا التَّخَاطُبِ.

قال عامر:

– أمُور عجِيبةٌ يا سيدِى .. أينَ أستطيعُ أنْ أعثرَ عَلى معْلُوماتٍ كهذِهِ؟

قال الرجل:

– مَا عليكَ إلاَّ أنْ تتابعَ آخرَ الكشوفَاتِ العِلْميَّةِ الَّتِى تتعلَّقُ بالطَّبيعةِ، وهناكَ أفلامٌ كثيرةٌ حولَ هذِه الموضُوعَات، ولوْ كانَ لديكَ وقتُ لاَ طلعتكَ عَلى أحدثِ المجَلاَّت الزراعيَّةِ وَلشهدْنَا بعضَ الأفْلام.

نظرَ عامر إلى سَاعتهِ وتذكَّر رَفيقهُ المريضَ فادى فقَالَ:

– سأعودُ مرَّةً أُخْرَى .. بَلْ لا بدَّ أَنْ أزوركَ باستمرارٍ فِى أوقاتِ العطْلةِ الصَّيفيةِ أوِ الإجَازات.

ثُم ودَّعَهُ بحرَارةٍ وهو يهمِسُ لنفسِهِ: سَأصبحُ عَالِمَ نبَاتٍ .. سأصبحُ عَالِمَ نَبَاتٍ...

هدايا ثمينة

فـورَ انتهَاء الصيدِ فِـى اليومِ الثَّالث مسـاءً كانَ الجميعُ مشغُولين بحَزْمِ أمتعَتِهم وَخِيَامهم، وهُم يصخَبونَ ويضحكُونَ، فقدْ كانتْ رحلةٌ موفقةٌ وممتعةٌ لهُم، وكانَ صيدُهم وفيرًا.

وَنشـطَ فادى بعدَ وَعْكتهِ الصِّحيَّة البسـيطةِ ليساعدَ والـدهُ فِى وضْـع الصَّيْد فِـى الثلاجَةِ التِـى ثُبتت فوقَ السيَّارةِ، وهوَ يقُولُ:

- مَا اصْطدتهُ أنَا فهُوَ لِى، ولكنْ ألَنْ تُعطينى عددًا مِنْ هذِه الطُّيور وَالأَرانبِ كهديَّةٍ؟

لنْ آخذَ الكثيرَ ثَلاثة أرانبٍ بيضَاء، وَهذيْنِ الطَّائريْنِ الغريبيْنِ، سَأدبغُ جُلُودَ الأرانبِ لأزيِّنَ بهَا جدَارَ غُرفتِى إلى جَانب البندقيةِ، أمَّـا الطائرانِ فعنْ طريقِ التَّحْنيطِ يُصبحَان تُحْفتيْن رَائِعَتيْنِ.

قالَ الأَبُ مُمَازحًا:

- وَمَا اصْطدتهُ أنتَ ماذَا ستفعلُ بهِ؟

أجاب فادى بنْبرَةٍ سَريعَةٍ:

- سأقدمهُ هدايَا إلى أَقربَائِى وَرفَاقِى وَجيرَانِى. كلٌّ منهُم ينتَقِى هَدِيَّته، وَلَوْ أرادَ أحدٌ أَنْ يأخذَ الجلدَ دونَ اللَّحم سيكونُ هذَا أَفْضل .. أليَست هذِه هدَايا ثَمِينة عَلى كُلِّ حَال؟

ثُمَّ أضَاف:

-لابـدَّ أنهَا سَتُشـجعُ حَامـد وعَابد وَسـليم عَلى أَنْ يتدرَّبُوا عَلى الصَّيْدِ ليصبِحُوا مَاهرِينَ مِثْلِى.

قالَ الأَب:

- أعتقـدُ أَنَّ تجربتـكَ هذِه فى الصيـدِ نَاقِصَة، فلقدْ تخلَّفتَ عنِ المشـاركةِ فِى اليوميْنِ الأولُ وَالثَّالث، ومعَ هذَا سَأعطيكَ مَا تطلبُ مِنْ حَصِيلةِ الصيدِ إنَّمَا بشرْطٍ...

قالَ فادِى بلَهْفَةٍ:

- ومَا هذَا الشَّرط؟

همسَ الأَبُ:

- إذَنْ انتبهْ، بشرْطِ ألاَّ تتفاخرَ وتدَّعِى أنكَ اصْطدتـهَا جميعًا. وضحكَا.

أَمــاً عامر فقدْ كانَ يجمعُ أغراضهُ ببُطْءٍ، وأبوهُ صَامت ينظفُ بندقيتهُ بعــدَ أَنْ تهيَّأَ للعودَةِ.. اقتربَ عامر مِنْ وَالدهِ، وقدْ أَحسَّ أنهُ مذنبٌ بطريقةٍ مَا، وقالَ:

- أَخْشَى أَنْ أَكونَ سَبَّبتُ لكَ ولرفاقكَ ازعاجًا يَا أَبِى، بعدمِ مُشَــاركتى فِى الصَّيْد، لكنهَا كانتْ تجربةً جيدةً بالنسَــبةِ لِى، فقدِ اكتشفتُ أننِى لاَ أصلحُ أَنْ أكونَ صيَّادًا مَاهرًا، ثُمَّ أننِى عدَّلتُ عَنْ حبِّ الصَّيدِ.

قال الأبُ:

- أنَــا لمْ أَنزعِــج بالطبعِ فأنتَ وَلَــدِى .. لكنْ رفاقِى لاَمونِى باصْطحابى إياكَ للصَّيد مَادمتَ لنْ تصطادَ شيئًا. هَــا هو فَادى رغمَ أنهُ تاهَ معكَ يومًا، ومرضَ يومًا آخر، فقــدِ اصطَاد عــددًا لا بأسَ بــهِ مِنَ العصافيــرِ والطيورِ والأرانبِ، وبرهنَ على الأقلِّ أنهُ صَيَّاد.

قالَ عامر:

- معــكَ حقٌّ يَا أَبى .. لكنَّ الأمرَ لــمْ يكنْ بيدِى، إذْ وجدتُ نفْسِــى فجأةً بعدَ جُرح الغزالةِ الرقيقةِ الجميلةِ

أنَّنِى غيرُ قادرٍ عَلى الصَّيدِ.

قال الأَبُ:

– هذَا شأنكَ ولنْ أُشجعكَ بعدَ اليومِ عَلى الصيدِ.

اقتربَ عامر منْ أبيهِ وَعَانقهُ قائلًا:

– لكنكَ ستشجعُنِى عَلى هوايَةٍ أُخرَى يَا أَبِى .. ولقدْ بدأتُ بهَا منذُ اليوم.

قالَ الأَب مُستغربًا:

– هوايــةٌ أُخرى؟ مثلُ ماذَا؟ وهــلْ تظْهرُ هوايةٌ بينَ يومٍ وليْلةٍ؟

جلــسَ عامر إلى جانــبِ أبيهِ، وأخــرجَ دفعةً واحدةً مُحتويَات حَقِيبته القُماشِــيَّةِ، فإذَا فيهَا نَمَاذج مِنْ أوراقِ الشجَر، وبعضُ النباتَات، التِى رُصَّتْ بعِنَايةٍ بينَ أوْراقٍ، وثمارٍ منْ أشَـجارِ الغابةِ لا تصلحُ طبعًــا للأكْلِ منَ البلُّوطِ والصُّنوبر، إضافةً إلى أغصَانٍ مُتنوعةٍ منْ بعضِ الأشجَار.

وعندمَــا ظَهَرت الورقــةُ التِى أَخذهَا مِنَ النَّاســكِ، عاملهَا برفْقٍ شَدِيدٍ قائلاً:

- هذهِ تعرفهَا يَا أَبِى .. لَقَدِ اعتبرتهَا فألًا حَسَنًا.

قالَ الأَبُ:

- حسنًا .. وما هَذِه الأشياءُ الأُخرى؟

أَجَابَ عامر:

- إنهَا الموَاد الأُولى التِى سَأتابعُ معلُوماتى عنهَا، وربمَا تجَاربى .. تستطيعُ أَنْ تعتبرهَا خَارِطَةَ الغابةِ ولوْ أنهَا خَارطة منْ نوعٍ آخرَ.

ابتسمَ الأَبُ وقال:

- وماذَا سَتفيدكَ هذِه المتابعَات؟ ثُم إنهَا ليسَتْ رَياضة، بينمَا الصيدُ رِيَاضة وَفَائدِة؟

قالَ عامر:

- سأكونُ فِى المستقبلِ عَالِمُ نباتٍ .. وَهذِه هىَ البذُورُ التِى ستكونُ مجَال تخصُّصِى فِى المْستقبلِ.

ضحكَ الأَبُ وقالَ:

- هكذَا إذَنْ .. دفعَة واحدَة .. هوَاية وتخصُّص.

قال عامر دونَ أَنْ يلحظَ نبرةَ المِزَاح منْ والدهِ:

– أليَس هذَا بالأمرِ الجَلَلِ يا أبِى أنْ يعثرَ أحدُنا عَلى طريقهِ فجأةً فيطْمئن إليهِ وَيَسير فيهِ؟

قال الأبُ مُستفسرًا:

– ومتَـــى تمَّ كلُّ ذلــكَ؟ فِى هذَا اليومِ الــذِى تَجوَّلت أثناءهُ فِى الغَابة؟

قَاطعَهُ عامر بلَهْفَةٍ:

– تســتطيعُ أنْ تقــولَ ذلكَ .. اعتبارًا مــنْ هذَا اليومِ بالتَّحدِيدِ.

ثُم أخذَ يروِى لوالدهِ بحمَاسةٍ شديدةٍ كلَّ ماجرَى معهُ فِى الغابةِ، وعنِ الصُّوبَـــةِ وَصَاحبهَا، وحتَّى عمَّا حصلَ بينَهُ وبينَ شَجرةِ اللَّيمُونِ.

اســتغربَ الأبُ مَا سمعهُ منْ ابنهِ، وأخذَ الأمرَ مأخذَ الجدِّ، فوضعَ البندقيةَ عَلى كتفهِ وقالَ:

– وهَــلْ نســتطيعُ أنْ نــزورَ تلــكَ الصُوبــة؟ أنَا لمْ أُلاحظهَــا رغْم مُــرُورِى تِكرارًا منْ هَــذا الطَّريق، يبدُو أَنَّـهَا قدِ اخْتَبَأَت بينَ الأشجَارِ.

قال عامر:

– بِالطَّبعِ تستطيعُ أَنْ تزورهُ، بَلْ إنَّ الرجلَ دعَاكُم لزيارتهِ، وليقدمَ إليكُم هدايَا منَ النباتَات وَأشجَارِ الزينَة.

اقتربَ فادِى بسرعةٍ منْ عامر، وقدْ سمعَ كلمةَ هدايَا مُستفسرًا: هدايَا؟ أىُّ هدايَا؟ هدايَا تُقدَّمُ لنَا؟ هذَا عظِيمٌ .. سَأضيفهَا إلى الهدَايَا التِى هَيَّأْتها.

سألَ عامر:

– وهلْ هيأتَ هدايَا؟ مَا هِىَ؟

قال فادى وهو يضحكُ:

– هدايَا منَ الصَّيد، وقدْ أضافَ لِى والدِى فوقهَا ستَّةً أيضًا.

وأخذَ يعدُّ علىَ أصابعهِ ليجمعَ رقمًا مجهولًا منْ عَامر، ثُمَّ قالَ:

– وأنتَ ما هِىَ هَدَاياك؟ قُلْ لِى .. هَلْ سَتُعطِى رفاقكَ غصنًا منْ هذهِ الأغصَان أَوْ ليمونةً مثلًا؟

انزعجَ عَامر للهْجَةِ السخْرية وقالَ:

– الاغصانُ وسَــائر هذهِ الأشــيَاء هِى لِــى لنْ أهديهَا لأحــدٍ، ثُم إنَّ الليمونَ قدْ نَفَـدَ أمَا صنعتَ لكَ فيمَا تبقَّى منهُ شرابًا هذَا الصَّباح أمْ أنكَ نَسِيتَ؟

لامَ فادى نفسهُ فاقتربَ منْ عامر معتذرًا وعانقهُ قائلًا:

– أنتَ لمْ تَصْطد شيئًا يَا صَدِيقى ..لا تَحزَنْ سأُشرِكُكَ فِى الهدايَا.

لكــنَّ عامر انســحبَ منــهُ بهــدوءٍ، وَانحنَى يجمعُ أغراضَهُ بينمَا سبقهُ والدهُ نحْو السَّيارات.

قال فادِى جادًّا:

– أنَــا أَعتذِرُ يَا عَامر إنْ كنتُ جرحتُ شُــعوركَ.. لمْ يكنْ قَصْدِى .. كنتُ أمزحُ.

قالَ عامر:

– وبالمناسبةِ أنَا لا أعتبرُ أنكَ تقدمُ هدايَا للآخرينَ، بلْ تريدُ أَنْ تبرهنَ لهُم أنكَ اصطدتَّ وكفَى.

أطرقَ فادى مُفكرًا وقالَ:

– ربمَا كانَ هذَا صحيحًا، لكننِى لَنْ أُقدم لهمْ إلاَّ ممَّا

اصْطدتهُ أَنَا.

قال عامر:

- أعنِـــى أنكَ لا تزالُ تحتاجُ إلـــى البرهَان .. أَمَّا أنَا فإننِى أريدُ أَنْ أُبرهنَ لنفْسِى فقطْ شيئًا وليسَ لغيْرِى.

قالَ فادِى:

- ربمَا .. ولكنْ لكلٍّ منَّا رَأيه.

وأضافَ بصوتٍ خَافتٍ كأنمَا يُخاطبُ نفسَهُ:

لكلِّ امتحَانٍ برهَان .. وامتحَانِى هُو غيرُ امتحَانك.

وحينمَا توجهَتْ قافلةُ السَّيارَاتِ عَائدةً كانتْ سيارةُ عامر ووالدهِ فِى المقدمةِ حتَّى يتوقَّفوا عندَ مركز الصُّوبَةِ، وكلٌّ منَ الطرفيْنِ صَامتٌ، الأَبُ وَابنُهُ، قالَ الأَبُ:

- بمَا تفكرُ يا عامر؟ أمْ أنكَ منزعجٌ مِنْ فادى؟

قالَ عامر:

- فادِى صدِيقى إلاَّ أنهُ لاَ يفهمُنِى.

قال الأَبُ:

- الصداقــةُ كنزٌ ثمينٌ ..يجــبُ أَلَّا تُفرِّطَــا فيهِ، إنَّ

الصداقةَ سَتُعيدُ التفَاهُم بينكُمَا.

قال عامر:

- أقصدُ يَا أَبِى إنهُ لمْ يفهمْ معنَى انصِرَافى عنِ الصَّيد لهوَايةٍ أُخرى.

قالَ الأبُ:

سوفَ يفعلُ عندمَا تبرهنُ لهُ عَلى هوايتكَ أو تعلنُ هوايتكَ عَنْ نفِسهَا.

قالَ عامر:

- سوفَ يحصلُ ذلكَ معَ فادِى ومعَ الجميعِ.

وعندمَا وصلُوا إلى الصُّوبةِ كانَ صَاحب المركزِ كأنمَا ينتظرهُم، أَسْرعَ لاسْتقبالهم ثُم رحَّب بِهمْ وَأَطْلَعَهم عَلى أقسَامِ الصُّوبةِ، وشرحَ لهُم كلَّ شيءٍ، فأبدُوا إعجَابهم كمَا أَبْدوا اسْتِغْرَابهم لقصَّةِ الأَشجَارِ المقزَّمَةِ ولطرقِ التَّهْجينِ للنبَاتِ والشَّجر، وكذلكَ التَّطْعيمِ.

وَقبلَ أنْ يُودعَهم صاحبُ المركزِ قدَّمَ لكلٍّ مِنْهم واحدةً مِنْ تلكَ الشَّتلاَت الملْفوفَةِ بعنَايةٍ حسبَ ذوقهِ أَوِ

اختيارهِ لنوعِ شجَر الزينةِ، وبالمقابِل قدَّمَ لهُ الصيادونَ بعضًا منَ الصيدِ الذِى مَعَهُم.

وبينمَا هُم يُغادرونَ نَادى صَاحب المركزِ صَديقَهُ عامر، وسَـار أمامهُ فلحقَ بهمَا فادِى ودخَلُوا المنزلَ جَمِيعًا، واجتـازُوا البهوَ، لكنْ عندمَا وصلُوا إلى الغُرفة الخاصَّة بصاحبِ المركزِ، أشارَ الرجلُ إليَ فادى أنْ يتوقَّفَ مكانهُ، ثـمَّ دخلَ معَ عامر لدقائقَ قليلـةٍ وفادى حَائِر، ثُمَّ خرجَا وعَامر يضحكُ والرجلُ يضعُ يدهُ عَلى كتفهِ ويقُولُ:

- هذهِ هَديَّتِى لكَ يا عامر أرجُو أنْ تكونَ فاتحةَ خيْر لهوايتكَ الجديدَة، ولدراستكَ فِى المستقبلِ، ولا تتردَّدْ أَنْ تَزُورَنِى متَى شِئْتَ.

ونظرَ فادى بدهْشَـةٍ فرأَى كتابًا ضخمًا بصورٍ مُلونَةٍ، وورق فاخرِ حولَ علمِ النباتِ والغَابات.

حقًّا إنهَا هَدِيةٌ ثَمِينَةٌ بلْ هَديةُ الهدَايا.

هـذَا ما علَّق عليهِ الجميعُ، ومَـا كانَ باعثًا عَلى فرحٍ غَامرٍ عندَ عامر.